الجراح تشهد

مذكرات طبيب في زمن الحصار

(بيروت 1982)

د. فايز رشيد

تقديم:

د. جورج حبش

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: 1983 م
الطبعة الثانية (طبعة الدار العربية للعلوم الأولى): 1436 هـ - 2015 م

ISBN: 978-614-02-2477-3

جميع الحقوق محفوظة

توزيع

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: jchebaro@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش. م. ل

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

الإهداء

مع تواصل العطاء...
من جيل لآخر
إلى روح أمي...
وإلى حبيبتي وشريكة عمري في الحياة..
وإعدادها هذا الكتاب معي ليلى خالد..
وإلى ابني... بدر....
وإلى ابني.... بشار...
وإلى الحفيدة الحبيبة... ياسمينة

" "

مقدمة الطبعة الثانية

و.... قصة هذا الكتاب

ثلاثة وثلاثون عاماً مضت على العدوان الصهيوني على لبنان عام 1982. أحداث كثيرة بالطبع وقعت على مدى هذه السنوات، تطورت معها أدوات ووسائل العدوان الصهيوني على شعبنا الفلسطيني وأمتنا العربية، وآخرها وليس أخيرها عدوان عام 2014 على قطاع غزة. سلسلة القتل الإسرائيلية لأهلنا في الضفة الغربية وبخاصة في مدينة القدس... عاصمة دولتنا المنتظرة... دولة على كل الأرض الفلسطينية من النهر إلى البحر بعد هزيمة المشروع الإمبريالي.. الصهيوني المتمثل في إنشاء دولة الكيان... هذه الدولة التي لابد وأن تمضي مثل كل الغزاة، السابقين واللاحقين ممن تعاقبوا على الأرض الفلسطينية العربية الكنعانية وعموم الأرض العربية.. كلّهم بلا استثناء حملوا عصِيّهم على كواهلهم ورحلوا بفعل المقاومتين: الفلسطينية والعربية فلا تحرر فلسطيني أو عرب-ي أو إنساني دون التحرر من الاحتلال الصهيوني للأرض الفلسطينية وأراضي دولتين عربيتين أخرتين: هضبة الجولان العربية السورية ومزارع شبعا اللبنانية. نعم فلسطين لا تقبل القسمة على اثنين وهي لفلسطينيها العرب الكنعانيين شاء المستعمرون أم أبوا.

خلال الفترة؛ ازدادت أشكال العدوان الصهيوني بربرية ووحشية وهمجية، فالصهيونية قامت في مذابحها وجرائمها وموبقاتها على الظاهرتين الأبشع في التاريخ: النازية والفاشية. العالم لم يتعامل مع الظاهرتين القبيحتين إلاّ من خلال اجتثاثهما لذا فمن الطبيعي أن تكون استراتيجية العديد من الفصائل الفلسطينية وعلى رأسها الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين تحرير كل الأرض الفلسطينية من النهر إلى البحر. شريط مؤلم من الأحداث الفلسطينية الأخرى التي وقعت: توقيع اتفاقيات أوسلو المشؤومة وتشكيل السلطة الفلسطينية دون أية مظاهر سيادية، وهي: إشراف إداري على القضايا الحياتية للسكان الفلسطينيين على بعض الأرض الفلسطينية بعد سيطرة دولة الكيان على أكثر من 78% منها. الاستيطان على أشدّه ومصادرة الأرض الفلسطينية وبناء الجدار العازل بالإضافة للانقسام الفلسطيني بين فتح وحماس ووفاة ياسر عرفات مسموماً بعد محاصرته ثلاث سنوات في المقاطعة. وفاة الدكتور جورج حبش بعد تخليه عن منصبه، إغتيال الشهيد (أبو) علي مصطفى الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين بعد قصف مقّره بصاروخين صهيونيين وانتخاب أحمد سعدات أميناً عاماً للجبهة، وتنفيذ الأخيرة لعملية اغتيال الوزير الفاشي رحبعام زئبقي انتقاماً لاغتيال الكيان لأب-ي علي مصطفى، ثم اعتقال سعدات ومنفذي العملية وسجنهم في سجن أريحا التابع للسلطة، وقيام قوات الكيان باختطافهم ومحاكمتهم وإصدار أحكام عالية على كل منهم. من الأحداث الفلسطينية: إعادة الاجتياح العسكري لشارون للضفة الغربية وضربه عرض الحائط باتفاقيات أوسلو وإعلانه "وفاتها" والإصرار الرسمي الفلسطيني على التمسك بها، ازدياد اعتداءات المستوطنين على القدس

والمسجد الأقصى، والقيام بجريمة حرق الطفل الفلسطيني الشهيد محمد أبو خضير حيّاً بعد سكب البن-زين عليه وإسقائه بالقوة كميّات كبيرة منه. هذه هي حقيقة الكيان... تصوروا؟!.

من الأحداث العربية: انتصار المقاومة اللبنانية في الحرب التاريخية عام 2000 وفي هزيمة العدوان الصهيوني على لبنان عام 2006 واضطرار دولة الكيان للخضوع لشروط المقاومة اللبنانية على تحرير بعض الأسرى اللبنانيين ممن كانت إسرائيل ترفض إطلاق سراحهم. إنتصار المقاومة اللبنانية أعطى قوة إضافية للمقاومة الفلسطينية بالمعنيين المادي والمعنوي، وبفضل مساندتها تمكنت قوات الفصائل الفلسطينية من إفشال أهداف العدوان الصهيوني على قطاع غزة عام 2014. معروف أيضاً أن هناك اتفاقيتين عربيتين مع إسرائيل هما: إتفاقية كامب ديفيد ووادي عربة. شهدت الفترة عدواناً أمريكياً - غربياً على العراق أدى إلى احتلاله بعد اجتياح القوات العراقية للكويت، تم إعدام الرئيس صدام حسين بعد محاكمته ومات وهو يردد كلمتي: فلسطين عربية. شهدت الفترة أحداث الربيع العرب-ي، ومصادرة نتائجه أمريكياً وغربياً وصهيونياً من خلال اتفاقيات عقدت بين الولايات المتحدة وبعض فصائل الإسلام السياسي. جرى استغلال متعمّد لحراكات جماهيرية في سوريا لشن حرب عدوانية عليها من خلال فصائل ما يسمى بالمعارضة الخارجية من تلك الساكنة فنادق الخمسة نجوم، وفيما بعد أضيفت عليها فصائل أصولية من نمط جبهة النصرة وداعش وغيرهما. باختصار شديد يجري التخطيط والتآمر الآن لتقسيم الدول العربية في العراق وليبيا ومصر والسودان وسوريا وغيرها تنفيذاً لمؤامرة تحدّث عنها بصراحة برنارد لويس.

الصراع في المنطقة والذي يفُترض أن يكون تناحرياً بين الأمة العربية من جهة والحركة الصهيونية وتمثيلها السياسي "دولة الكيان" من جهة أخرى جرى تغييبه لصالح الصراع التناحري المذهب-ي الطائفي الإثني في أكثر من دولة عربية، ودول عربية كثيرة أخرى مرّشحة للوقوع في مطّب هذا الصراع!. الوطن العرب-ي للأسف يتعرض لمؤامرة سايكس - بيكوية جديدة والتناقضات العربية (المفترض أنها ثانوية!) وانغماس شعوبنا في حروب عبثية.. ساعد في ان-زلاقها لخضّم المؤامرة. داعش هي اختراع أمريكي كما أكّدت هيلاري كلينتون وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة في مذكراتها التي صدرت في كتاب جديد في أمريكا، رغم ذلك تجد داعش صدىً لها بين العديد من القطاعات الشعبية العربية، وذلك تحت راية الإسلام الذي هو من داعش ومثيلاتها براء!. هذه هي أبرز الأحداث الفاصلة بين فترتي إصدار الكتاب.

á á á

قصة الكتاب

أما قصة أحداث هذا الكتاب والتي لم أذكرها في الطبعة السابقة فتتلخص فيما يلي:

أوجعتني حدود الافتراش للعقل والقلب، تلك المعاناة الماثلة أمامي حتى اللحظة في عيون الأطفال والنساء والشيوخ والعديد من الشباب الجرحى من ذوي الإصابات المختلفة ممن رأيتهم رؤية العين، بفعل البشاعة في الجرائم والمذابح والاعتداءات والأسلحة الصهيونية ومنها الفوسفورية المحرّمة الاستعمال دولياً! كان لابد من التعبير عن هذه المعاناة ونقلها إلى القرّاء، وهكذا وُلِدتْ فكرة الكتاب. كنت وبعد قيامي بمهماتي في مركز "هايكزيان" الطبـي الذي افتتحه الهلال الأحمر الفلسطيني في منطقة الصنايع في بيروت وتسلّمت إدارته والمسؤولية الطبية عن جرحاه وآلاف اللاجئين فيه أذهب وزوجتي وشريكتي ورفيقة عمري وحبيبتي ليلى خالد، وقد كانت حاملاً بابننا بدر، إلى المراكز الأخرى مساءً لتقديم أي مساعدة ممكنة للجرحى فيها. زرنا معظمها.. تأثرّتُ وهي كذلك ببعض الحالات التي اعتبرناها (الأكثر عُمقاً) ولم يكن باستطاعتي الكتابة عنها كلها والتي ستحتاج إلى مجلّدات. في اليوم التالي ومع مراعاة وضعها الصحي، وبعد إنجاز مهامها في النهار؛ كنا نذهب معاً في الليل لتسجيل تفصيلات إصابة الحالة، ومع الانقطاع المتعدد للكهرباء كنت أكتب على ضوء الشموع في كثير من الأحيان، وبعد انتهائي أقوم ليلاً بكتابتها بصيغتها الأولية خوفاً من نسيان التفاصيل وزيادة في تأكيد دقّة وصحة ما كتبت، كنت أَدَعُ ليلى لتراجعها، وفي كثير من الأحيان، نبّهتني إلى الكثير من القضايا المنسيّة! وصل بـي الأمر وعن قناعة أن أعرض عليها وقبل إنجاز الطبعة الثانية للكتاب، أن أضع اسمها أيضاً إلى جانب اسمي في تأليفه، رفضت وقالت بالحرف الواحد: أنت من قام بصياغته، وهكذا أنجزت مادة الكتاب ووردت في ذهني فكرة تقديم الحكيم أمين عام جبهتنا لمقدمته.

بعد كتابة مسودات الكثير من الحالات، ذهبت وليلى إلى مقّر الرفيق الدكتور جورج حبش في مكانٍ ما في بيروت بعد تحديد موعد معه. كان الهاجس في ذهني يدور بأسئلة ترد واحداً بعد الآخر في متوالية لا تنتهي: كيف سأقوم بإشغاله في كتابة المقدمة وسط مهامه الكثيرة؟ متابعة أوضاع قوات الجبهة والاجتماعات الشبه يومية للقيادة الفلسطينية والتي يشارك فيها، مهمات أخرى قد لا أعرفها وليس بالضرورة أن أعرف! مهام صحافية كثيرة؛ مقابلة صحفيين، شبكات تلفزيونية، مقابلة وفود تضامنية عربية وأجنبية كلُّها تصّر على مقابلته، وأخرى وأخرى! تساءلت: وهل سيجد وقتاً للكتابة وهو الذي يصّر في كثير من الأحيان على صياغة جملها فيقوم بإملائها على من يسّجلها، تساءلت عن إمكانية رفضه؟ وهل؟ وهل؟.

وجدناه ساهراً في مكانه. بعد الترحيب والاطمئنان عن الأحوال وإخبارنا بمستجدات الوضع وأخبار الاتصالات الجارية، طلبت منه وبخجل شديد الاضطلاع على المادة، ومسودة مقدمتي والجزء الأول منه بعنوان: أيام ومعاناة والعديد من

الحالات...! استكملت ليلى مواصلة الشرح... بعد اندهاشي بعطاء القائد الثوري وتوقفي عن الكلام، من ثمّ شكرته.. وغادرناه.

بعد الاتفاق على خروج المقاومة من بيروت ورحيلنا... استكملتُ الجزء المتبقي من المادة، وأتممتها في سوريا، ثم عرضتها على فرع الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين في دمشق، وقد كان الأخ يحيى يخلف من الخارجين إليها أيضا من بيروت، وهو الأمين العام للاتحاد حينها، وافقوا في الاتحاد مشكورين على تبنيه وطباعته وتمت إحالة مخطوطته إلى إحدى دور النشر، التي تباطأت كثيراً في إصدارها. الكتاب انشهر كثيراً وبيعت نسخٌ كثيرة منه في عواصم عربية، وكانت طبعات كثيرة أخرى منه قام بها الناشر. الكتاب كان أوّل مؤلفٍ لي أطلق اسمي في عالم الكتابة، وتناولته صحفٌ عربية عديدة وكتب عنه الكثيرون، وللأسف لم يكن التخزين على الجهاز العنكبوتي قائماً وقت صدوره في عام 1983. بعدها واصلتُ التأليف في إنجاز الكتب السياسية والأدب في حقلي: الرواية والقصة القصيرة هذا إضافة إلى مهماتي كطبيب وكاتب أسبوعي في العديد من الصحف العربية. على المستوى الشخصي: جاء بدر وبعده بشار وانتقلنا إلى الأردن واستقررنا فيه، وافتتحتُ مركزي للعلاج الطبيعي والتأهيل والوخز بالإبر الصينية في عمّان. كان ذلك بعد ذهاب‌ـي للاتحاد السوفياتي عام 1985 من دمشق، وبقائي هناك فترة خمس سنوات لنيل الدكتوراه في الطب في هذا التخصص. الانتقال جاء بعد إلغاء الأحكام العرفية في الأردن والعفو عن الكثيرين وإتاحة استعادتهم لجوازات سفرهم. أكمل أبناؤنا الدراسة في عمّان، تخرّج كل منهما من الجامعة. عملا وانتقلا للعمل في الخارج. تزوّج بدر وجاءت الحفيدة الغالية الحبيبة ياسمينة، وهكذا تتواصل الحياة من جيل لآخر.

.

2014 -

تقديم الكتاب

( )

اجتاح الإسرائيليون أرض لبنان، وحاصروا بيروت، وارتكبوا المجازر، وأحرقوا المزروعات، ودمروا القرى والمخيمات والمدن.

قتلوا وجرحوا عشرات الآلاف وشردوا مئات الآلاف وارتكبوا بحق الإنسان جرائم لا يمكن لعقل بشري أن يستوعبها أو يقبل بها.

لكن كل هذا شكّل وجهاً واحداً لمعارك لبنان والوجه الآخر كان انتصار الإنسان على الجريمة والمجرمين: انتصار المواطن اللبناني والفلسطيني على الدمار والمجازر وصمود الثورة الفلسطينية في وجه العدو بجبروته وآلة الدمار الضخمة التي يملكها.

في ذكرى معركة حزيران الهزيمة... حزيران 1967 بدأ بيغن حملته المجرمة وكأنه يريد أن يمحي من التاريخ حرب المعراخ ضد العرب ويسجل من خلال حملته العسكرية الجديدة تاريخاً جديداً للدولة العنصرية.

فدفع بكامل جيشه إلى ساحة المعركة واستخدم سفنه الحربية ومدفعيته بكامل طاقاتها وطيرانه الحربـي وكل الذخائر المحرمة دولياً من قنابل فوسفورية وعنقودية وانشطارية وقنابل ضغط.

دفع إلى ساحة المعركة أكثر من خمسة آلاف آلية وتعاون معه العملاء الفاشيون، وسهّل له الطريق، العملاء الذين تربعوا على رأس السلطة ومؤسساتها، كل هذا بهدف واضح: تصفية القضية الفلسطينية.

منذ اليوم الأول للمعارك أعلن بيغن أن حملة الجيش الإسرائيلي والتي أُسميت "سلامة الجليل" ستتم خلال 24 ساعة أو 48 ساعة على أبعد تقدير. ومنذ اليوم الأولى أعلن شارون أن منظمة التحرير ستصّفى ويُقطف رأسها.

وامتدت المعارك على مدى ثمانين يوماً من صور جنوباً إلى بيروت شمالاً ومُرغ أنف بيغن وشارون في التراب بالرغم من كافة الخسائر التي منيت بها الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. في منطقة صور خاض مخيم الرشيدية معارك ضارية ودمّر العدو أكثر من 70% من المخيم تدميراً كاملاً بعد أن عجز عن دخوله. ودخل المخيم بعد أن حوّله إلى ركام.

وفي منطقة صور أيضاً قاتل مخيم البص قتالاً بطولياً وخرج أشبال المخيم يتصدّون للدبابات الإسرائيلية ودمّروا على مدخله العشرات منها.

وفي منطقة صور أيضاً قاتل مخيم برج الشمالي قتالاً بطولياً واستمر في الصمود أياماً طويلة.

وفي الوقت ذاته كانت تدور معارك طاحنة في منطقة النبطية والشقيف حيث

انبرت مجموعة من المقاتلين الأبطال فقاتلت أياماً وليالي في قلعة الشقيف ولم يتمكن العدو من دخول القلعة إلا بعد أن استخدم الغازات ضد الأبطال الميامين.

أما منطقة صيدا وعين الحلوة فالحديث عنها يطول: فقد صمدت الأكواخ في وجه قذائف العدو أياماً وليالي طويلة. ولم يتمكن العدو من دخول المخيم إلا بعد أن دمّر أكثر من 80% من بيوته وحوّله إلى أنقاض على جثث المئات من نساء وأطفال المخيم.

وبقي جنوده يخشون دخول المخيم أياماً بعد انتهاء المعركة خشية من مقاتل ينتصب من بين الركام. وفي الدامور دارت معارك واسعة وسقط "جنرالهم" قتيلاً على يد مقاتل شجاع كمن له في قبو البيت الذي استخدمه جيش العدو مقر قيادة له.

وعند مثلث خلدة، سجّل الأبطال اللبنانيون والفلسطينيون والسوريون ملاحم يعجز الإنسان عن وصفها، فقد صمد الأبطال هناك في وجه هجمات شرسة. هجمات برية وجوية وبحرية. وصدوا أكثر من ثماني محاولات إن ـزال بحرية.

وبقي المثلث صامداً يحمي بيروت ومدخلها الجنوب ـي إلى أن التفّ العدو على هذا الموقع الرائع البسالة، من منطقة الجبل واستشهد البطل عبد الله صيام بطل صمود خلدة.

أما بيروت فالحديث عنها لا ينتهي ولن ينتهي لأنها تاريخ العرب الحديث.

في بيروت سجّلت طليعة الأمة العربية بداية تاريخ العرب الحديث.

فقد أمنت بصمودها، للأمة جمعاء، رصيداً من الثقة بالنفس وبالقدرة على حماية نفسها سوف يشكل خميرة لعملية الصمود المقبلة وللتراكم الإيجاب ـي الذي سينتهي بالانتصار على المشروع الإمبريالي الاستيطاني على أرض فلسطين.

في ظل العجز العرب ـي الرسمي، وفي ظل تآمر العديد من الأنظمة على الثورة الفلسطينية، وفي ظل تكبيل الجماهير العربية ومنعها من الالتحاق بالثورة ومن السعي لفك حصار بيروت، في ظل كل هذا، حافظت الطليعة على العهد وصمدت في وجه الآلة العسكرية الأمريكية التي أسقطت فوق بيروت في يوم واحد هو الثاني عشر من آب، قنابل ومتفجرات وصواريخ تبلغ قوتها ضعفي قوة القنبلة التي ضربت هيروشيما.

منعت بيروت شارون من دخولها ومرّغت أنفه في تراب "المتحف" عندما دمّرت السواعد اللبنانية- الفلسطينية دباباته وزرعت الرعب في قلوب جنوده.

لقد حددت بيروت بصمودها فشل شارون، فقد منعته من اقتحام أبوابها وبذلك منعته من تحقيق هدف حملته البربرية وهو تصفية منظمة التحرير الفلسطينية وقيادتها. لقد صمد المواطن وكان أساس المعركة، صمد بلا ماء ولا غذاء ولا دواء وبقي ملتفاً حول القوات المشتركة.

لقد صمدت الجماهير ولم تستسلم بالرغم من آلاف الأطنان من القنابل والصواريخ التي كانت تزرع الأحياء يومياً وتُدمر البنايات والملاجئ على من فيها.

وكانت بهذا تعطي درساً للأمة جمعاء: أن قرار الصمود والقتال هو الأساس ولا يمكن لقوة مهما كانت متفوقة بالسلاح والتقنية أن تهزم شعباً أراد الحياة وأراد

الدفاع عن نفسه.

لقد حدد بيغن وشارون أهداف حملتهم العسكرية على لبنان على أنها تصفية منظمة التحرير الفلسطينية عسكرياً وسياسياً وتصفية قيادة منظمة التحرير وإخراج القوات السورية من لبنان وتوقيع معاهدة سلام مع حكومة لبنانية مركزية قوية.

لقد كانت هذه هي الأهداف الأساسية المعلنة لحملة الجيش الصهيوني على لبنان وبالطبع فقد كان العدو يضيف لها يومياً أهدافاً عديدة أخرى ثانوية إذا ما قورنت بهذه الأهداف الأساسية. لكن سير المعارك وصمود الجماهير اللبنانية الفلسطينية في بيروت أفشل مخطط العدو. فعلى الصعيد العسكري لم يتمكن العدو من تصفية منظمة التحرير عسكرياً بدليل أن الجسم الأكبر لهذه القوات سواءً الذي خرج من بيروت أو الذي بقي في البقاع، بقي سليماً وغير مدمراً. وكذلك من الناحية العسكرية المعنوية، تمكنت القوات الفلسطينية بالتعاون مع قوات الحركة الوطنية اللبنانية من منع شارون وقواته من دخول بيروت وتمكنت بصمودها من منعه لتحقيق شروطه التي حاول فرضها أثناء التفاوض مع الحكومة اللبنانية على الانسحاب من بيروت لتجنيبها الدمار وتجنيب أهلها القتل الجماعي الذي كان شارون يرتكبه يومياً.

كذلك من الناحية السياسية لم يتمكن شارون بحملته التي كلفت الآلاف من القتلى والجرحى من تصفية منظمة التحرير الفلسطينية سياسياً. فها هي تحظى بمزيد من التأييد على الصعيد العالمي، أما في أوساط الشعب الفلسطيني فقد ازداد التفاف الجماهير حولها وازداد تمسكهم بها كممثل شرعي وحيد لهم.

إن هذا الفشل الذي لا يبدو حجمه واضحاً سوف تظهر آثاره المدمرة على الكيان الصهيوني في المستقبل، فقد خرجت المنطقة من هذه الحروب بنتائج هامة جداً أهمها أن الانتصار على الكيان الصهيوني أمر ممكن عندما تتوفر إرادة القتال والإعداد له. لقد أثبتت معارك بيروت أن الآلة العسكرية الصهيونية مهما كانت متفوقة تقف عاجزة أمام السواعد القوية المزودة بالسلاح البسيط والمناسب، كما كشف للعالم وحتى للعرب طبيعة هذا العدو العنصري وأساليبه المجرمة التي ترتكز على الحقد العنصري.

لكنها في الوقت ذاته، كشفت شرخاً هاماً يمكن أن يلحق بالكيان الصهيوني في حال بلورة تعاون فلسطيني مع القوى اليهودية التقدمية.

لقد خرج المقاتلون الفلسطينيون من بيروت يكلل رؤوسهم الغار وتوجهوا من معركة بيروت لساحات معارك أخرى على طريق تحرير فلسطين بإيمان راسخ بأن الانتصار حتمي، وأن حق تقرير المصير سينتزع وأن دولة مستقلة ستقام على أرض الوطن يرفرف على عاصمتها القدس علم الأمة العربية.

شعبنا ازداد إيماناً بحتمية الانتصار بعد معارك لبنان بالرغم من كل التضحيات التي بذلها... بالرغم من الوحشية التي استخدمها العدو الصهيوني في معارك لبنان.

هذا الكتاب لا يتحدث عن المجزرة التي ارتكبت في مخيمي صبرا وشاتيلا والتي ذهب ضحيتها عدد كبير من أبناء شعبنا... من النساء والأطفال واليافعين،

لكنه يتحدث عن نماذج... عن شهادات حية. عن حالات عوينت وعولجت في فترة المعارك التي سبقت خروج قوات منظمة التحرير الفلسطينية من بيروت.

فالدكتور فايز واضع هذا الكتاب طبيب فلسطيني أمضى وقته أثناء الحرب الإسرائيلية الفلسطينية في معالجة المصابين الذين نقلوا إلى مستشفى غزة ومدرسة "الهايكزيان" التي حولت كمثيلاتها من المدارس البيروتية إلى مستشفى ميدان.

وقام هو وزملاؤه الأطباء بأداء دورهم الإنساني والوطني على أكمل وجه. ولقد أتاح له هذا الوضع فرصة لا يمكن أن تتاح لغيره فها هو يعاين ويعالج حالات تأتيه عبر فرق الإنقاذ والإسعاف من مختلف المناطق، وشكّل تراكم المعلومات الطبية الدقيقة مادة أساسية في الكتاب الموجود بين أيديكم.

الحالات المستعرضة تتحدث عن مأساة الشعب الفلسطيني... تتحدث عن قصته مع الأعداء وقصته مع الأصدقاء.

تجدون طفلة طرد أهلها من فلسطين بعد نكبة عام 1948 فسكنوا تل الزعتر الذي دمر وقتل الآلاف من سكانه على أيدي الفاشيين الإسرائيليين في عام 1976 واضطرت للهجرة مع من تبقى من عائلتها لمنطقة الدامور التي استخدمت مقراً مؤقتاً لمن تبقى من سكان تل الزعتر، فتصاب الطفلة بعد ذلك بشظايا قنبلة إسرائيلية ألقيت على المدنيين في منطقة الدامور.

مسلسل من التشرد والملاحقة والتعذيب والقهر. هذا هو المخطط المرسوم ضد شعبنا.

وهذا ما يسجله الدكتور فايز في كتابه هذا من خلال العيّنات التي سجل نوع إصابتها وموقع الإصابة وتاريخها. والدكتور فايز في كتابه لا يكتفي بهذا، بل يتطرق للوجه الآخر من المأساة ونتائجها. فإذا كان استعراضه للإصابات والمصابين والمأساة هو أساس المادة المقدمة للقارئ، فإنه يقدم في الوقت ذاته الوجه الآخر: صمود هذا الشعب واستمراره في النضال بالرغم من المأساة والتشرد والقصف والتدمير.

وهذا ظاهر من خلال صمود ومعنويات المصابين أنفسهم ثم بصموده هو من ناحية أخرى. فها هو الدكتور فايز وزملاؤه الأطباء الفلسطينيين يقفون بكامل طاقاتهم وجهدهم لمعالجة أبناء شعبهم وأبناء الشعب اللبناني في ظل القصف المجنون والدمار الذي كاله العدو حمماً من الطائرات والسفن الحربية والمدفعية، ويعطون بذلك الدليل على أن الشعب الفلسطيني الذي مضى على ثورته الحديثة سبعة عشر عاماً قد بنى مؤسساته التي لا تهتز بفعل قذيفة مدفع أو صاروخ طائرة حربية أو حتى مجزرة ترتكب هنا أو هناك بحق تجمعات شعبنا.

الدكتور فايز يقدم لنا في هذا الكتاب ملفّ قضية. يشرح من ناحية الجريمة المرتكبة بحق الفلسطينيين ويعطي للعدالة الدليل الدامغ على الجريمة والمجرم.

مساهمة إنسانية وطنية رائعة هي الجهود التي بذلها الدكتور فايز وزملاؤه الأطباء على أرض المعركة. وفي هذا الكتاب يكمل فايز دوره بالمساهمة في إدانة العدو وعلى تحديد الجريمة والمجرم.

ولن تموت قضية عادلة طالما بقي مناضلون يسعون في سبيلها.

مقدمة

إن الشهادات الواقعية الحية التي يتعرض لها هذا الكتاب، تعتبر دليلاً جديداً يضاف إلى سلسلة الجرائم التي ارتكبتها "إسرائيل" (منذ إنشائها) بحق شعبنا الفلسطيني وعموم جماهيرنا العربية، تبين لنا بوضوح كامل الجوهر الحقيقي للحركة الصهيونية، والمتمثل في كونها حركة عنصرية، نازية جديدة، عمادها الأساسي هو العنف والقتل والتدمير والنهب والتشريد.

إن هذه الجرائم التي اقترفتها إسرائيل في عدوانها الأخير على لبنان ضد الشعبين الفلسطيني واللبناني، هي التجسيد الحقيقي لمضامين الحركة الصهيونية. هذه الحركة التي تمتد جذورها الإرهابية إلى زمن بعيد، والتي تتخذ من العنف والعدوان والقتل دستوراً لها.

إن المؤتمر الصهيوني الأول، الذي عقد في مدينة "بال" في سويسرا عام 1897 برئاسة الزعيم الصهيوني هرتزل، قد أسفر عن وضع المخططات "السرية" ه والعلنية من أجل العمل على نشر وتمدد الأخطبوط الصهيوني وهيمنته ليشمل مناطق كثيرة في العالم. هذه المخططات كان على رأسها إنشاء التعبير المادي للصهيونية وهو إقامة الدولة "الإسرائيلية" على أرض فلسطين العربية.

لقد جاءت الصهيونية لتعيد صياغة الترانيم والتعاليم اليهودية بشكل يخدم أهدافها ومخططاتها التآمرية ضد الشعوب، على قاعدة أن اليهود هم "شعب الله المختار".

ولتصنع من هذه التعاليم أيديولوجيتها التي تستند في مرتكزاتها العقائدية والفكرية على أساس "القتل" وتتخذ من "الإرهاب" والعنف وسيلتها لتحقيق مخططاتها.

"يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة"[1].

"إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خيّر وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد"[2].

هذا الأسلوب هو ما اعتمدته الحركة الصهيونية لتنفيذ تآمرها وإنجاز مخططاتها، والتي تضمنته بروتوكولاتها التي صيغت في مؤتمرها الأول.

لقد حاول مؤسسو الحركة الصهيونية الأوائل فيما قالوه أو كتبوه أن يجعلوا من العنف وسيلة ملازمة للتعاليم اليهودية. **يقول جابوتنسكي** (أحد القادة الصهاينة) وهو يعطي تعليماته للطلاب اليهود في فيينا بألا يتركوا السيف في تقاليدهم التي يريدون تغييرها، لأن "الاقتتال بالسيف ليس ابتكاراً ألمانياً، بل إنه ملك لأجدادنا الأوائل. إنَّ التوراة والسيف أن‌ـزلا علينا من السماء"[3].

أما هرتزل فيقول:

"إنَّ الإنسان مهما بلغ من الثراء والقوة، غير قادر وحده على اقتلاع شعب من أرضه. القوة... وحدها تستطيع أن تفعل ذلك. وفكرة الدولة تمتلك بالتأكيد مثل هذه

القوة"[4].

"إن الإمبراطورية الإسرائيلية، سوف تمتد من النيل إلى الفرات، وإن إسرائيل لا يمكن أن تعيش إلا بالقوة والسلاح"[5].

وعلى نفس الهدى يسير **مناحيم بيغن**، رئيس الوزراء الصهيوني، وزعيم حزب حيروت. فهو يقول في تأكيد أهمية العنف في التاريخ: "إن قوة التقدم في تاريخ العالم ليست السلام، بل السيف"[6].

وفي كتابه "التمرد" أو "الثورة" يستطرد بيغن قائلاً: "من الدم والنار والدموع والرماد سيخرج نموذج جديد من الرجال لم يعرفه العالم لأكثر من ألف وثمانمائة سنة، وهو (اليهودي المحارب)".

وفي هذا الكتاب الذي ينبض بالحقد على كل ما هو إنساني يقول بيغن: "قال ديكارت: أنا أفكر فأنا إذن موجود، وأقول: أنا أقتل فأنا إذن موجود[7].

ومن يتأمل الأدب الصهيوني يجد أن عباراته وتأملاته وتصوراته هي الأخرى ممزوجة بفكرة العنف. ففي رواية "الخروج" للكاتب الصهيوني "ليون أوديس"، يقول أحد الأبطال الرئيسيين في الرواية: "لقد خلقنا جيلاً من الطرازانات ليدفعوا عن إسرائيل، إننا لا نستطيع أن نعطيكم غير حياة من الدماء"[8].

من خلال ما تقدم يتضح لنا أن فلسفة الصهيونية تقوم على أرضية لا إنسانية - فلسفة العنف -.

كذلك لا يبدو غريباً على الإطلاق أن ترتكب "إسرائيل" كل هذه الفظائع بحق الفلسطينيين واللبنانيين خلال حربها الأخيرة ضد لبنان.

إن "التطور" فيما اقترفته وتقترفه "إسرائيل" من جرائم يوازي بالضرورة تطوراتها العسكرية، وبالتالي عدوانها الهمجي.

هذا بالإضافة إلى أن الصهيونية وقاعدتها المادية "إسرائيل" قد وجدت في الإمبريالية شريكاً لها في المخططات والمصالح، ولذلك فقد اعتمدت عليها في تغطية عدوانها المتكرر سياسياً وعسكرياً واقتصادياً. فأن لكلا الطرفين مصالح في قمع شعوب المنطقة، بهدف بسط الهيمنة ونهب ثرواتها.

إن ما تقترفه "إسرائيل" من جرائم، وما اقترفته في حربها الأخيرة كانت حرب إبادة حقيقية للشعبين الفلسطيني واللبناني. فقد لجأت إلى أسلوب القتل الجماعي، فاستهدفت في قصفها التجمعات السكانية المدنية الفلسطينية واللبنانية، كما حدث لمخيمات الرشيدية وعين الحلوة والبص والبرج الشمالي في الجنوب اللبناني، وبرج البراجنة وصبرا وشاتيلا بالقرب من بيروت، وكذلك للمناطق الآهلة بالسكان في بيروت الغربية، كما استهدفت تدمير المدن والقرى اللبنانية الأخرى.

هذه الجرائم جاءت مخالفة صارخة لكل المواثيق والقوانين والاتفاقيات الدولية التي توصلت إليها شعوب العالم بعد الويلات التي ذاقتها هذه الشعوب على أيدي النازية الهتلرية.

إن المجتمع الدولي أقر اتفاقية مكافحة جريمة إبادة الجنس البشري والجزاء عليها في التاسع من كانون الأول/ديسمبر عام 1948. ومما جاء في هذه الاتفاقية [9]:

المادة الأولى

تؤكد الدول المتعاقدة من جديد أن الأفعال التي ترمي إلى إبادة الجنس، سواء ارتكبها في زمن السلم أو في زمن الحرب تعد جريمة في نظر القانون الدولي، وتتعهد باتخاذ التدابير لمنع ارتكابها والعقاب عليها.

المادة الثانية

يقصد بإبادة الجنس في هذه الاتفاقية أي فعل من الأفعال الآتية يرتكب بقصد القضاء كلا أو بعضاً، على جماعة بشرية بالنظر إلى صفتها الوطنية أو الإنثوجرافية أو الجنسية أو الدينية:

1. قتل أعضاء هذه الجماعة.
2. الاعتداء الجسيم على أفراد هذه الجماعة جسمانياً أو نفسياً.
3. إخضاع الجماعة عمداً إلى ظروف معيشية من شأنها القضاء عليها ماديا كلا أو بعضاً.
4. إتخاذ وسائل من شأنها إعاقة التناسل داخل هذه الجماعة.
5. نقل الصغار قسراً من جماعة إلى جماعة أخرى.

إن الجرائم الإسرائيلية قد تعدت نصوص هذه الاتفاقية لتمزق أيضاً اتفاقات جنيف الدولية. إذ إن "الإسرائيليين" في حربهم الأخيرة قد لجأوا إلى إتباع سياسة التجويع للمدنيين الفلسطينيين واللبنانيين من خلال حصار بيروت الذي امتد لشهرين كاملين، بحيث قطعوا الماء والغذاء والكهرباء والعلاج عن ساكنيها ومن بينهم نساء وشيوخ وأطفال وجرحى.

ففي باب الأحكام المشتركة[10] (اتفاقيات جنيف) في الاتفاقيات الأربعة ورد ما يلي:

نكتسب المادتان المشتركتان في الاتفاقيات الأربع واللتان تتعلقان بموضوع العقوبات أهمية خاصة، فهما تُعِدّان إلى حد ما الطريق أمام تشريع دولي للعقوبات، وذلك بتحديد المفهوم القانوني للجرائم الدولية أو المخالفات، التي جرت العادة على تسميتها بجرائم الحرب.

وتضع أحكام هاتين المادتين أمام الضمير العالمي بعض المخالفات الخطيرة للاتفاقيات، التي إذا ظلت دون عقاب لدلّت على انحطاط الشخصية وتدهور في مفهوم الإنسانية.

تقول المواد: المادة (50) من الاتفاقية الأولى، المادة (51) من الاتفاقية الثانية، المادة (130) من الاتفاقية الثالثة، المادة (147) من الاتفاقية الرابعة:

"إن المخالفات الخطيرة التي تشير إليها المواد السابقة هي التي تتضمن أحد

الأعمال الآتية إذا اقترفت ضد أشخاص أو ممتلكات تحميها هذه الاتفاقية: القتل المتعمد، التعذيب أو المعاملة البعيدة عن الإنسانية بما في ذلك التجارب الخاصة بعلم الحياة، الأعمال التي تسبب عمداً آلاماً أو إصابة خطيرة للجسم أو الصحة، النفسي أو الأبعاد غير القانوني للأشخاص المحميين، إرغام الشخص المحمي على الخدمة في قوات الدولة المعادية، أو تعتمد حرمان شخص من الحقوق الخاصة بالمحاكمة الصحية القانونية، المنصوص عنها بهذه الاتفاقية، أخذ الرهائن أو التدمير الشامل للممتلكات أو الاستيلاء عليها دون ضرورة حربية وبكيفية غير مشروعة واستبدادية".

لقد استعملت "إسرائيل" في حربها الأخيرة الأسلحة المحرمة الاستعمال دولياً، كالقنابل العنقودية والانشطارية والفسفورية والصواريخ الفراغية بحيث كان حقل التجارب لهذه الأسلحة هما الشعبان الفلسطيني واللبناني، مخالفة بذلك الاتفاقيات التي تحرم هذه الأسلحة والتي تنص على:

المادة (35)[11] من الملحق، البروتوكول الإضافي إلى اتفاقيات جنيف:

1. إن حق أطراف أي ن-زاع مسلح في اختيار الأساليب ووسائل القتال ليس حقاً لا تقيده قيود.
2. يُحظر استخدام الأسلحة والقذائف والمواد ووسائل القتال التي من شأنها إحداث إصابات أو آلام لا مبرر لها.
3. يُحظر استخدام وسائل أو أساليب للقتال، يُقصد بها أو قد يتُوقع منها أن تلحق بالبيئة أضرار واسعة الانتشار وطويلة الأمد.

المادة (36)[11] الأسلحة الجديدة:

يلتزم أي طرف سام متعاقد، عند دراسة أو تطوير أو اقتناء سلاح جديد أداة للحرب أو إتباع أسلوب للحرب، بأن يتحقق مما إذا كان ذلك محظوراً في جميع الأحوال أو في بعضها، بمقتضى هذا اللحق (البروتوكول) أو أية قاعدة أخرى من قواعد القانون الدولي التي يلتزم بها هذا الطرف السامي المتعاقد.

إن إسرائيل، وهي تضرب عرض الحائط، كل هذه الاتفاقيات، قد مارست أبشع أنواع الممارسات اللاإنسانية، واتّبعت أسلوباً إجرامياً في الحرب وذلك بضربها المتعمد لسيارات الإسعاف التابعة للصليب والهلال الأحمر التي كانت تنقذ الجرحى لتنقلهم إلى المستشفيات، أو تنتشل الجثث من بين الإنقاض، وفي ذلك خرق لمواد اتفاقيات جنيف الأربع[12].

المادة (15) من الاتفاقية الأولى، المادة (18) من الاتفاقية الثانية، والتي تنص على:

"في جميع الأوقات وعلى الأخص بعد الاشتباك في القتال، يقوم أطراف الن-زاع دون تأخير بجميع الإجراءات الممكنة للبحث عن الجرحى والمرضى وجمعهم وحمايتهم من السلب وسوء المعاملة وضمان العناية المناسبة بهم، والبحث عن جثث القتلى ومنع تلفها".

ولم تتوان "إسرائيل" عن الإمعان في ارتكاب كل أنواع الجرائم، فبالإضافة إلى

ما تقدم، فإنها قامت بقصف المستشفيات في بيروت ومنها، مستشفيات عكا، البربير، المقاصد، حيفا، الجامعة الأمريكية، اللاهوت، التريومف... وغيرها.

هذا، بالإضافة إلى تدميرها لمستشفيات صيدا وصور والنبطية، وفي ذلك مخالفة للمادة(19) من الاتفاقية الأولى التي تنص على "احترام وحماية المنشآت الثابتة والوحدات الطبية المتحركة التابعة للخدمات الطبية. وتوفر هذه الحماية أيضاً بالنسبة لكافة المباني أو المنشآت الثابتة كالمستشفيات والمستودعات... الخ وكذلك كافة الوحدات الطبية المتحركة كسيارات الإسعاف ومستشفيات الميدان، والخيام، والتركيبات المتنقلة... الخ".

لقد استهدفت إسرائيل في قصفها أيضاً دور العجزة والمعاقين، كما حصل بالنسبة لدار العجزة التابعة لجمعية المقاصد الإسلامية، وأحد دور المعاقين في منطقة خلدة.

هذه جوانب قليلة فقط من الممارسات الصهيونية الإجرامية في الحرب الأخيرة التي شنتها "إسرائيل" والتي تتنافى مع أبسط القواعد الإنسانية والخلقية والاتفاقات الدولية.

إن دولة "إسرائيل" التي قامت في الأساس على العنف والإرهاب والعدوان والقتل والتوسع الجغرافي، والتي احتلت أرض فلسطين وطردت شعبها وأسكنتها قادمين جدد ومهاجرين من مختلف أنحاء العالم، دولة كهذه، تمارس نمطاً فريداً من الأعمال الهمجية المتمثلة في ممارسات النازية الجديدة، وعلى هدى الأيديولوجية الصهيونية، والتي اعتبرتها منظمة الأمم المتحدة في قرارتها شكلاً من أشكال العنصرية، دولة كهذه، تضرب عرض الحائط كل المواثيق والاتفاقيات الدولية والرأي العام العالمي، لا يمكن أن تخطو خطوة صغيرة باتجاه السلام، بل على العكس إنها التهديد المباشر له.

إن السلام بالنسبة "لإسرائيل" هو القطب المغناطيسي المنافر لها.

إن "إسرائيل" قد وجدت لتكون دولة عنصرية فاشية تعتمد على الإرهاب.

وإن من واجب القوى المحبة للسلام أن تعمل جاهدة لتجنيب المجتمع الدولي من خطر الصهيونية، ذلك أن دائرة خطرها تتجاوز الواقع الفلسطيني والعرب-ي.

إن المجتمع الدولي والقوى الديمقراطية والمحبة للسلام مطالبة بتأييد نضالنا العادل ضد النازية الجديدة من أجل تحرير وطننا فلسطين وإقامة دولتنا الديمقراطية عليها.

الفصل الأول
أيامٌ ومعاناة

تتواضح الرؤى، تماماً مثلما يعجز الخيال عن استيعاب وقائع ما يجري في هذه الحرب، وتحديداً في مدينة بيروت المحاصرة. فإن أعظم الكتّاب سعة في خياله يقف مشدوهاً ومحاصراً هو الآخر أمام همجية الصهاينة، قساوتهم، وكل أشيائهم الدنيئة.

يتساءل المرء... أمن الممكن أن تتوفر شهية القتل والفتك والتدمير لدى أناس من الجنس البشري بمثل ما يتصف به هؤلاء؟؟ أمن الممكن أن يحدث كل هذا في القرن العشرين؟؟ وصفحات كثيرة.. امتلأت بحقوق الإنسان، والقوانين الدولية... والمعاهدات الإنسانية... الخ. لا تطول الحيرة في إيجاد الأجوبة على كل هذه التساؤلات... أليسوا هم تلامذة جابوتنسكي وزبانيته؟..

وتسرح الذاكرة بعيداً إلى مذابح دير ياسين، وكفر قاسم، وبحر البقر... وأخرى غيرها من تلك الكثيرة التي ارتكبوها بحق شعبنا وأمتنا.

القاموس اللغوي هو الآخر يشعر بالعجز في أيامنا هذه، والمفردات العربية تقف صاغرة أمام وصف مقاتلي القوات المشتركة... الفلسطينية - اللبنانية... والناس، كل الناس، أناسنا الطيبين، الصامدين في مدينة الحصار... مدينة الموت... مدينة الحياة... ومدينة الأمل... مدينة بيروت.

أعداؤنا لا يدركون مسيرة التاريخ... وأصالة شعبنا. إنهم يزرعون الموت والدمار في كل النواحي... وفي كل الزوايا... في كل القرى والمدن... وفي بيروت...

من بين ركام الهدم... تنبت الزهور... ومن بين الحطام... ينبت الأمل... جباهنا تعانق الحياة وتستدير نحو الشمس... وهكذا الحياة...

وتستعرض الذاكرة مرة أخرى قصيدة وجدها الأمريكيون في جيب مقاتل فيتنامي بعد استشهاده:

إذا كنت ماء... فلتكن البحر..
وإذا كنت صخرة... فلتكن حجر ألماس..
وإذا كنت زهرة... فلتكن دوار الشمس..

طائراتهم تُغير ساعات كثيرة متتالية، تُسقط مئات الآلاف من القنابل المتعددة الأنواع والحديثة الصنع، في حقل تجاربهم... بوارجهم هي الأخرى تشارك في المجزرة... وكذلك المدافع... دباباتهم المستوردة حديثاً... تحاول التقدم... ولكن... يقف مقاتل القوات المشتركة، الفلسطيني - اللبناني... ويتراجع العدو الصهيوني خاسئاً وللمرة العشرين تقريباً في نفس اليوم...

ويتحول البترول العرب‍ـي للأسف... إلى قذائف وصواريخ أمريكية... تُسقطها الطائرات والبوارج والمدافع الإسرائيلية على أجساد أطفالنا الفلسطينيين واللبنانيين... تقتلهم أو تشوههم، أطفالنا تجاوزوا أعمارهم... تماماً مثلما هو

الإنسان الفلسطيني واللبناني... إنسان فوق العادة... لقد حُرم أطفالنا من الفرح في الوقت الذي يعيش فيه أطفال العالم طفولتهم بكل براءتها.

أعداؤنا يقدّمون هداياهم الديناميتية لأطفالنا على شكل ألواح شوكولاتة وأقلام حبر.. إنها الهدايا التي كانت المصانع الحربية الإسرائيلية قد أعدّتها في السنة العالمية للطفل...

ويجلس عراب البيت الأبيض مع رجال البنتاغون، وأصحاب مصانع السلاح، يحتسون النبيذ في كؤوس صنعت من جماجم أطفال فلسطين ولبنان وأطفال الحرية في العالم...

موائدهم تفوح برائحة اللحم البشري من أجساد مقاتلي الحرية... ما أكرههم!!

وتعود الذاكرة إلى هوشي منه عندما زار روضة أطفال فيتنامية أيام القصف الوحشي الأمريكي لفيتنام بعد أن دمّرتها القذائف الأمريكية... يومها قال "هوشي منه" للأطفال:

"اعرف ما تعانونه، أعرف أنكم محرومون من فرح الطفولة لكنني أثق في الانتصار، سيعود لمدرستكم لون الطلاء الأبيض... سن-زرع الزهور في حديقتها... وسيعود الفرح إلى عيونكم... "وصدقت نبوءة "هوشي منه".

ويا أطفال بلادي... سيعود الفرح إلى عيونكم... لأنها مسيرة التاريخ..

ما أقسى الحرب... ما أكرهها... وما أبشعها... إنها تمثل حقدهم... حقد أعدائنا... ظلمهم... عنجهيتهم... نازيتهم... فاشيتهم... وكل الأشياء القبيحة..

بالنسبة إلينا... أنها قدرنا... إننا نكره الحرب... إلا أننا مضطرون لخوضها... بكل ما تحمله من آلام... ذلك لأننا نريد أن نحقق العدالة... والحرية... لأننا نريد بناء الوطن... وجواز السفر...

عندما كنت طالباً في السنة الثالثة في كلية الطب، في جامعة الصداقة للشعوب في موسكو وفي إحدى المحاضرات، طرح أستاذ الأمراض الباطنية سؤالاً: "لو قُدّر لكم أن تعايشوا حرباً، كأطباء... ما هو تصرفكم لو جاءكم أحد الجرحى من الأعداء؟؟ أعداءكم... هل ستعالجونهم؟؟" يومها اختلفت الآراء... إلا أن الأكثرية (ومن ضمنهم أنا) كان لهم نفس الجواب... إننا سنعالجهم. وأذكر الآن المعاملة الحسنة التي لقيها الطيار "الإسرائيلي" الأسير "أهارون اخيعاز" في هذه الحرب من قبل مقاتلي وأطباء الثورة الفلسطينية... وليس أدل على ذلك من تصريحات الطيار نفسه، إذ إن حارسه تحوّل إلى صديق. حماه مقاتلونا من غضبة الجماهير عندما ن-زل بمظلته، عالجه أطباؤنا... ما يزعجه هو أصوات الطائرات الصهيونية عندما تزرع الدمار في بيروت.

هكذا علمّتنا الثورة... أن نكون إنسانيين دائماً... إنه الحليب الذي رضعناه من أصالة شعبنا... وثورتنا... أقارنُ بين معاملتنا لأسراهم، وبين معاملتهم الفاشية لمعتقلينا وأسرانا... أقارن بين إنسانيتنا ونازيتهم. ما أبعد المسافة بينهما!!! كم من الأجساد شُوّهت في سجونهم...

الأطباء يتعاملون مع الحالات الأكثر كراهية في الحرب. لقد قيل الكثير ونشر الكثير من الشهادات التي تدل على همجية الأعداء ووحشيتهم... بودي أن أسجل

مجموعة من الحالات التي عايشتها من خلال عملي كطبيب فقد كان لها وجهان:
الوجه الأول هو نازية أعدائنا
الوجه الآخر هو قدرتنا على الاحتمال... في سبيل الحرية والكرامة والصمود في وجه النازيين الجدد. هذه القدرة كانت الباعث دوماً على الاستمرار في العطاء... وفي أعلى درجاته... إنها المثل الأعلى التي نستلهم منه صمودنا...
وينبعث الإصرار من جديد... يتجدد كل لحظة... لنكون بمثل قدرنا، وعلى مستوى التحديات التي نواجهها، حيث أنه في الزمن الفلسطيني، يتعمّق الانتماء، يتجه نحو جذور الأصالة، يُبحر في آفاق الكبرياء، يُلاطم أمواج الخنوع، يقهر رياح الاستسلام... وبمضي الفارس الفلسطيني.. يكبو أحياناً، لكن الأصالة والإيمان بالنصر، والانتماء في حالة صحو دائم...

إننا نمحو الموت عن ذاكرة الوطن...

صيف عام 1979 - أواخر تموز، في القاعة الفسيحة لمبنى جامعة الصداقة في موسكو، جرى احتفال لخريجي كلية الطب. كنتُ ضمن تلك الدفعة... وبصوت جماعي أقسمنا اليمين... يمين "أبقراط".
بعد التخرج لم أستطع العودة إلى مدينتي الفلسطينية... قلقيلية... المدينة الوديعة... الحلوة... الهادئة... فبلدتي احتلها الإسرائيليون بعد حرب عام 1967. على أثر هذه الحرب، قضيتُ سنتين في سجون العدو الصهيوني، وبعدها أبعدتني سلطات الاحتلال إلى الأردن.
وبالتالي، فإنه وبعد تخرجي عدت إلى لبنان وعملت في عيادة الجبهة في مخيم شاتيلا ثم جاء قرار حزبـي بنقلي إلى الأردن، وابتدأت عملي في عيادتي في مخيم "شلنر" بالقرب من مدينة عمان... وهو مخيم فلسطيني، يعيش أهله في ظروف اجتماعية واقتصادية وصحية بالغة الصعوبة.
تعلّمت حب الالتصاق بالجماهير من سنواتي النضالية في صفوف الثورة.
ومن هذا الانتماء، وهذه الأصالة التي تعلمناها... والتي كانت تزداد عمقاً في نفسي يوماً بعد يوم، انغمستُ في عملي واختلطت بالبسطاء من أبناء شعبـي في المخيم... وازداد إحساسي بثقل المعاناة التي نحملها على كواهلنا... وتعززت قناعاتي وإيماني بضرورة بذل المزيد من الجهد والعطاء... في سبيل الثورة... وعلى طريق الانتصار... طريق العودة إلى فلسطين.
امتدت رحلتي مع العمل في المخيم لمدة سنتين ونصف. عشقتُ عملي... وأحببت الناس من فقراء شعبـي.
بقرار حزبـي، كان عليّ أن أنتقل من الأردن إلى لبنان، في بداية عام 1982تسلّلتُ ليلا برفقة دليل (جرى الاتفاق معه من قبل رفاقي) عبرنا الحدود الأرد اللبنانية (كان جواز سفري محجوزا مثل كثيرين أيام الأحكام العرفية!) انتظرتنا سيارة في موقع محدد، نمت ليلتها في بيت أحد الرفاق في درعا، ثم صباح اليوم التالي استقللت السيارة إلى بيروت بعد استراحة قصيرة في دمشق... لأتابع مسيرتي في الثورة، من خلال عملي في أحد مستوصفاتها، في مخيم برج البراجنة وغيره من المخيمات الفلسطينية الأخرى في بيروت، وقد رأيت فيها جميعا..

امتداداً لمخيم "شلنر"... غير أن الفارق الوحيد هو في الجغرافيا فقط.
تزوجت من ليلى بعدانتظار مدة تقارب الثلاث سنوات.
يوم الجمعة في (4يونيو) بعد الظهر تقريبا. كنا مدعوّين إلى الغداء عند أحد الأصدقاء في البناية التي نسكنها على كورنيش المزرعة. كان بيت الداعين في الطابق الثامن، وبعد تناول الطعام انتقلنا إلى الشرفة. كانت الساعة تقترب من الثالثة، وإذ فجأة نسمع صوت انفجار قريب.. ومن ثم أصوات طائرات ا تحلق في الجو.. قدّرنا أنها إسرائيلية. نظرتُ من الشرفة... دخان أسود يرتفع... يشق عنان السماء بالقرب من منطقة الجامعة العربية في قلب بيروت الغربية..
غارات الطائرات الصهيونية... والسيارات المفخخة أصبحت جزءاً من حياة بيروت في السنوات الأخيرة.. هرعنا إلى الملجأ.. ن ـزلتُ الدرج بسرعة وقد انقطعت الكهرباء. كنا نتوقع المزيد من الغارات.
في طريق الن ـزول.. توقفتُ في مدخل البناية، وكانت الغارات الصهيونية تتوالى. كنت أرقب قصف الطائرات من المدخل مثل الكثيرين من أهالي بيروت الذين تعودوا على مراقبة طائرات العدو وهي تقصف مدينتهم.
نصف ساعة مضت... اعتقدتُ أثناءها أن الغارات قد انتهت. حاولتُ الذهاب إلى أقرب مستشفى وهو مستشفى غزة القريب التابع للهلال الأحمر الفلسطيني.. وفي طريقي.. ماشيا بالطبع.. عادت الطائرات للإغارة.. وقصفت المناطق القريبة من الجامعة العربية (وأنا كنت في ذاك الطريق.. بحكم وجود المستشفي قريبا منه)، مما اضطرني للاختباء في مدخل إحدى البنايات. استمر القصف العشوائي مدة ساعتين متتاليتين.
استطعت بعدها الوصول إلى المستشفى في منطقة صبرا. قدّمت نفسي للطبيب المسؤول، وباشرت العمل في غرفة الطوارئ.
كانت لحظات.. قاسية... صعبة.. بالنسبة لي، فهي المرة الأولى التي أشاهد فيها ضحايا القصف بهذه الكثرة منذ وصولي إلى بيروت.
سيارات الإسعاف وبأصوات زمامیرها المميزة... ترد تباعاً إلى المستشفى... تنقل الجرحى ضحايا الهمجية النازية الجديدة... جرحى كثيرين... نساءا، أطفالا، شيوخاً ومقاتلين.. أحضرتهم السيارات إلى غرف الطوارىء. التوتر هو سيّد الموقف.. كنت تراه على وجوه وفي حركات كل المتواجدين. يعجّ المدخل بالناس... من أقارب الجرحى. امتدّت الإسعافات إلى ساعة متأخرة من الليل.
صبيحة اليوم التالي الخامس من يونيو: حثثتُ ليلى على الذهاب مع والدتها إلى الجبل، لا سيما وأن حالتها الصحية كانت تستدعي الراحة التامة، وذلك بسبب بدايات الحمل. وعليه فقد ذهبت ووالدتها بعد الظهر إلى شملان - قرية جبلية صغيرة - وتوجهتُ أنا إلى عملي الذي كان قد تحدد في مستوصف آخر أفتتح حديثاً في مخيم "مار الياس" في بيروت.
كان يومي الأول في المستوصف الجديد... مرضى قليلون حضروا للعلاج، طيلة الوقت كنت أستمع إلى جهاز الراديو وهو ينقل أنباء القصف الجوي والبحري والبري لمناطق متعددة من الجنوب.

وأتساءل بيني وبين نفسي... أهي مقدمات للاجتياح؟؟ خاصة وإن رفائيل إيتان رئيس أركان "الجيش الإسرائيلي" وشارون وغيره من القادة العسكريين "الإسرائيليين" كانوا قد هددوا بالاجتياح.. وبالوصول إلى مشارف بيروت... ولكنني أستبعدت الفكرة.

مر هذا اليوم حزيناً في تاريخ شعبنا... إنها الذكرى الخامسة عشر لاحتلال الضفة الغربية وقطاع غزة وسيناء والجولان.

وأسرح في ذاكرتي بعيداً... إلى ذلك اليوم منذ خمسة عشر سنة مضت... عندما ابتدأت حرب حزيران 1967، كنت فرحاً يومها بالأخبار لتي تناقلتها الإذاعات العربية عن "الانتصارات" الكبيرة على جبهة سيناء وعن الخسائر الكبيرة التي تكبدها العدو في تلك المعارك. كنت أعتقد أن ذاك اليوم سيكون بداية انطلاقتنا وعودتنا إلى فلسطين.. إلى شواطئ يافا... وبيارات البرتقال... وكرمنا..

مدينتي قلقيلية في الضفة الغربية تبعد عن البحر، عن يافا اثني عشر كيلو متراً فقط، بالعين المجردة كنا نرى بعض البنايات في "تل أبيب". في ذلك اليوم، وفجأة... ابتدأ القصف الصهيوني لمدينة قلقيلية... قذائف كثيرة سقطت على المدرسة الثانوية بالقرب من من ـزلنا، حيث إنها كانت مقراً للدفاع المدني. استمر القصف مدة ساعتين يومها. إحدى القذائف سقطت في البيارة المجاورة للمدرسة. أصابت خمسة من المتواجدين فيها. واستشهدوا جميعهم على أثرها. رأيت موتهم، فقد كنت يومها متواجداً في المدرسة.

أحداث اليوم الفائت في مستشفى غزة، وأحداث اليوم ربطتني بالماضي القريب... البعيد. سنين طويلة مرت.. وما زلنا نعاني من نفس الهمجية... وعلى يدي نفس العدو، ولكن بأسلحة أكثر حداثة وتطوراً هذه المرة.

في ذلك اليوم، عندما قصفوا قلقيلية، سقط سبعون شهيداً خلال ساعتين وكان هناك مئات من الجرحى.

لقد كانت فاجعة، بعدها أُصبت بإحباط كبير.. وأخذت أتساءل... أين هي أسلحتنا؟؟ أين مدافعنا؟ وأين.. وأين؟؟

أهل مدينتي لم يكونوا يملكون الأسلحة... (عفواً).. كان ممنوعاً أن يقتني أحدهم أي سلاح ولا حتى مسدس لأن حامله كان يعاقب بالسجن ستة شهور.

كل هذه الأفكار كانت تدور في خاطري وأنا أجلس في غرفة الكشف في مستوصف مار الياس.

يوم الأحد 6 حزيران

الساعة العاشرة صباحاً... توجهت إلى شملان حيث زوجتي ليلى وفي الطريق إلى الجبل كان ملاحظاً خلو الشارع من السيارات على الرغم من أنه كان يوم عطلة.

الأجواء في بيروت كانت توحي بالحرب

السيارة تقطع الطريق المتعرج الصاعد إلى الجبل... وأنا أربط في مخيلتي بين

أحداث الماضي ونبوءات المستقبل... كان من الصعب علي أن أتصور أن هذا الجبل ستصله القوات الصهيونية الغازية بعد أيام فقط.

فترة زمنية مضت... وصلت بعدها إلى شملان. وبعد تناول الغداء، كانت الأخبار تأتي من الراديو وتعلن عن بدء الاجتياح الصهيوني لجنوب لبنان، وعن معارك ضارية يخوضها مقاتلونا ضد القوات الغازية.

قررت العودة إلى بيروت... أصرّت ليلى على الذهاب معي. لكنني رفضت ولم يكن يدور في خلدي أن مخطط أعدائنا سيكون احتلال الجنوب.. والجبل.. والوصول إلى بيروت.. وبعد وصولي، ذهبتُ إلى المقر الحزبـي، ويقرر الرفاق أن ابتدأ عملي في صباح اليوم التالي في مستشفى غزة.

يوم الاثنين: 7 حزيران.. وأيام أخرى تالية

في الصباح بدأت العمل في المستشفى. وفي غرفة الطوارئ كنت أعمل معظم ساعات النهار.. جرحى كثيرون يأتون، كانت تجري لهم الإسعافات اللازمة. لكن إحدى الظواهر البارزة التي لفتت نظري.. والتي تعبر بصدق عن مدى أصالة الانتماء لدى مقاتلينا... أن قسماً كبيراً منهم كان يصر على العودة إلى المواقع رغم إصاباتهم... لون الكاكي كان يثير لديهم إحساسا من نمط خاص، فيجعلهم يستعجلون العودة للقتال رغم كل جراحهم.

أثناء اليوم كان الطيران الصهيوني يعاود غاراته المتكررة على مناطق مختلفة في بيروت. بينما البوارج البحرية تشدّد قصفها على المناطق الآهلة بالسكان ملحقة المزيد من الدمار والقتل والفتك بالمواطنين الأبرياء.

الأطباء، الممرضون، العاملون في مستشفى غزة، يعملون بلا كلل. الكل يتابع الأخبار عبر الراديو.

يشتد القصف لمنطقة صبرا وشاتيلا والضاحية الجنوبية من بيروت وبالتالي: مزيد من الجرحى والشهداء.

العاملون في المستشفى من أطباء وممرضين يقابلون القصف بالمزيد من العطاء، وبجلسات المرح البريء.

إنها معركتنا... لا بد من الصمود..

كل يوم صمود بالنسبة لنا، يعني الاستمرارية، يعني فرز معطيات، عربية، ودولية جديدة، تمكننا من دحر المخططات الصهيونية. والكل مقتنع بأن العامل الذاتي هو الأساس في صمودنا.

عدتُ في المساء إلى البيت... بعض الرفاق أتوا للسكن معي في المنـزل، على الطابق السابع من البناية، كنا نستمع للأخبار... معنويات الجميع عالية. مصادر العدو تعترف بضراوة المعارك التي تخوضها قواتنا في الجنوب، وتعترف ببسالة مقاتلينا.

مساء الأربعاء 9/6 كنا نجلس (بعض الرفاق وأنا) عند مدخل البناية، وكان القصف قد تركز على كورنيش المزرعة حيث تقع البناية. قذائف من هنا وهناك تتساقط وتنفجر إحداها بالقرب منا. مرت دقيقة واحدة فقط على انتقالنا من

المدخل، وفجأة قذيفة تصيب الطابق الثاني من البناية، وقد وصلت شظاياها إلى وسط المدخل على مسافة مترين اثنين فقط منا حيث كنا نجلس هرعنا إلى الملجأ... أحسست أن جسمي يرتجف.. رأيت الخوف في عيون الآخرين.. باختصار نجونا بالصدفة.. لأول مرة منذ بدء الاجتياح، أحسست ساعتها أن الموت قريب مني.

صباح اليوم التالي، حاولت الذهاب إلى شملان للاطمئنان على ليلى... لكن الطريق إلى الجبل كانت خطرة جداً.. فأصبحت أكثر قلقاً وتوتراً.. لقد افتقدتها كثيراً..

وتعلن الأخبار أنه رغم تمكن الغزاة "الإسرائيلية" من احتلال مناطق الجنوب.. إلا أن أبطالنا.. مقاتلينا.. يزرعون الموت والرعب بين صفوف العدو ويكبدونه خسائر كبيرة. لقد توزعوا في مجموعات تقاتل خلف صفوفه.. مقاتلونا يمارسون حرب العصابات.

يوم 10/6 في مستشفى غزة، تقترب الساعة من التاسعة ليلاً، اشتد القصف عل منطقة المستشفى نفسها. كل من فيها كان قلقاً. الجرحى في الطوابق العليا نُقلوا إلى الطوابق السفلى من المبنى... صُراخ الأطفال الجرحى كان يسمع عن بعد. آلمني كثيراً بكاء الأطفال وصراخهم. كنت أتمزق. حتى المستشفيات في شريعة العدو الصهيوني هدفا للقصف.

قذيفة انفجرت في الطابق الثاني للمبنى المجاور، شبّ حريق هائل، تأخرت الإطفائية. الكل يخشى انتقال النار من المبنى المحترق إلى المستشفى.

محاولات متكررة... عبر التلفون والأجهزة وإرسال سيارة لاستدعاء سيارة الإطفاء... ولكن لم تنفع كل المحاولات، وجاء عناصر من الكفاح المسلح يحملون الإطفائيات الصغيرة الاحتياطية. ولكنهم لا يستطيعون السيطرة على النار التي انتقلت من الطابق الثاني إلى الأول. وهنا اقترح أحد الأطباء أن يقوم الجميع بملء الجالونات الموجودة بالماء. وما هي إلا دقائق حتى تمكنّا من إطفاء الحريق والسيطرة على النيران.

اشتدّ القصف.. رغم أن الساعة كانت تقارب الخامسة صباحاً.. ولم يهدأ.. شعرت بالتعب وبإرهاق شديد.. ساقاي لا تستطيعان حملي. نـزلتُ إلى الملجأ. ليس هناك مكان للنوم. عدتُ أدراجي إلى الطابق الأرضي. جلست على كنبة في إحدى الغرف... ولكنني لم أستطع النوم. نـزلت إلى الملجأ مرة أخرى. وجدت "فرشة" خالية ملقاة على الأرض. كانت بالنسبة لي مثل كنـز. استلقيت عليها.. ونمت. صحوت في العاشرة صباحاً. كان القصف قد هدأ، عملت في غرفة طوارئ حتى الثانية ظهراً.. وما زال هناك قصف متقطع. سيارة إسعاف كانت في طريقها لنقل احد الجرحى أوصلتني إلى البيت.

يوم 12/6 تحمل الأنباء احتلال "الإسرائيليين" للجبل.. ولشملان.. حيث ليلى زوجتي، كنت مع الرفاق عندما سمعت النبأ.. كنا نجلس في البيت..

شعرت أنني سأفقد السيطرة على نفسي.. وبدأ رأسي بالدوار.. خرجت مسرعاً إلى غرفة أخرى مجاورة. لم أشأ أن يلاحظ أحدهم انفعالاتي، وبدورهم لم

ينتبهوا... أغلقت الباب وجلست وحيداً على السرير.

العالم كله تجسدّ أمامي في صورتين.. صورتها وصورة طفلي الذي يتخذ من رحم أمه ملجأ.

شهور قليلة فقط مضت على زواجنا. تلك اللحظة انتظرناها طويلاً. ثلاث سنوات عانينا خلالها كثيراً. وتأتي الحرب، وليلى تحت الاحتلال.

ضميري يعذبني كثيراً.. عندما زرتها في شملان، أصرّت على الذهاب معي.. أنا الذي ألحّ على أن تبقى هناك، ماذا لو اكتشفوا وجودها؟ ماذا لو اعتقلوها؟ أسئلة كثيرة دارت في ذهني.

ليلى بالنسبة إليهم تمثل صيدا ثميناً.. هي في قاموسهم "إرهابية" تستحق الموت... سيشعرون بنشوة كبيرة.. وبانتصار أكبر إن هم تمكنوا من اعتقالها.

أمن الممكن أن نصل إلى هذه النهاية وبعد فترة قليلة من زواجنا؟.

وماذا عن الطفل... هذا الذي ما إن سمعت نبأ تكوينه حتى طرت من الفرح.. لحظتها غمرني شعور بالسعادة.. وامتلكني إحساس لذيذ من نمط خاص... لم أحسّه من قبل.. أخذنا بعدها نرسم كل الصور الدافئة والحلوة والجميلة للطفل القادم لابننا أو ابنتنا.

وأتساءل: "أمن الممكن أن يكون الاحتلال سبباً لنهاية كل الأحلام الجميلة التي رسمتها خيالاتنا؟" ولا أستطيع أن أصدق الفكرة.. ألفظها.. وأقذفها رصاصة في قلوب الأعداء.. لن يستطيعوا حرماننا من لحظات الفرح القادم!!! ولكني أعود إلى الحقيقة... إلى الواقع.. أن ليلى تحت الاحتلال.

ذهبتُ إلى بعض الرفاق المعنيين.. سألتهم عن إمكانية إحضارها.. "بالطبع سنحاول".. أجابوا. وتمضي الأيام طويلة بلياليها عانيت خلالها كثيراً.. لكني لم أفقد الأمل..

وفي الساعة العاشرة صباحاً من يوم 22/6، وكنت في المستشفى يأتي أ الرفاق.. ويقول لي: "حضرت ليلى.. إنها في البيت..":

خرجت من المستشفى مسرعاً بالمريول الأبيض.. الذي نسيت أن أخلعه.. وكان لقاؤنا.. من جديد.. وتواصلت الصور الدافئة والحلوة والجميلة للفرح القادم..

اتفاقات متعددة لوقف إطلاق النار.. يخرقها "الإسرائيليون".. إنهم يستغلون الفرص من أجل الإغارة والهجوم من جديد.. لاحتلال المزيد من المناطق.

جحيم القصف والغارات الصهيونية يزداد عنفاً رغم كل هذه الاتفاقيات. نضطر معها إلى تغيير من ـزلنا من الطابق السابع والانتقال إلى بيت آخر في نفس المنطقة، يبعد قليلاً عن كورنيش المزرعة، البيت يقع في الطابق الأول من إحدى البنايات في شارع "بربور".

تأتي إحدى رفيقاتنا مع شقيقتها المريضة للسكن معنا. لكننا اكتشفنا خطأنا من اليوم للانتقال، حيث إن القذائف كانت تنفجر قريبة من المن ـزل الجديد. فكنا نهرع إلى الملجأ المملوء بالكتب، والذي كانت إحدى دور النشر قد اتخذته لها مخزناً منذ سنوات.

ويتواصل القصف ليومين متتاليين، لم يتوقف لحظة... لم أتمكن خلالها من

الذهاب إلى المستشفى حيث أعمل.. وبقينا طيلة هذين اليومين في الملجأ.. حيث الرطوبة والجو الخانق، وحيث أقام فيه الكثيرون من أهل البناية ومن سكان البنايات المجاورة.

يومان طويلان جداً... من القصف والمعاناة والخوف.. كنا نصعد خلالها إلى البيت من أجل قضاء حاجة أو إحضار شيء للأكل.

والدة ليلى المريضة بالربو ازدادت حالتها سوءاً من الجو الخانق في الملجأ. وكذلك شقيقة رفيقتنا. كان لدي بعض الأدوية القليلة، لكنها لم تكن لتفي بالغرض.

مجموعة من الشبان الصغار ممن كانوا في الملجأ، يقبعون في إحدى الزوايا.. يلعبون الورق، يتصايحون، ويضحكون طيلة النهار... وحتى ساعات الصباح الباكر.

كل من في الملجأ كان بحاجة للنوم، ولكن لم يستطع أن يدركه أحد.. من جراء أصوات القذائف، والخوف والجو الخانق.. وصياح أولئك الشبان.

استمرت الحالة هكذا طيلة النهار... والليل... وأعود إلى المستشفى في اليوم الثالث.

زملائي في العمل، الذين افتقدوني.. يهنئوني.. بالسلامة. كما بادلتهم التهنئة بسلامتهم بعد هذين اليومين الطويلين..

في بيروت... كان الموت هو القانون.. والحياة هي الصدفة. عندما تسأل أحدا.. كيف الحال؟ يجيبك: إنني أعيش!!

الناس يترقبون الموت.. أو.. الإصابة بعاهة دائمة. تمر بمن تعرف.. حتى لو كنت قد رأيته بالأمس، تأخذه بالأحضان.. تقبله.. تهنؤه بسلامته، بنجاته، وبحياته التي ابتدأت من جديد.

كل إنسان في بيروت كان معرضاً للقتل.. لو سألت أياً من ساكنيها عن قصص نجاته من الموت. لروى لك حوادث كثيرة..

قد يتصور البعض أنني أبالغ في الوصف. لكنها الحقيقة التي يعرفها كل من عايش المعارك والحصار.. وأيام بيروت..

ويتعرض مستشفى غزة للقصف من جديد.. وكذلك الحال بالنسبة إلى مستشفى عكا. ويضطر الهلال الأحمر الفلسطيني إلى افتتاح مراكز طبية جديدة في مناطق متعددة من بيروت، لأن المستشفيات، ونتيجة العدد المتزايد من الجرحى يومياً، أصبحت غير قادرة على استيعاب الحالات الجديدة. هذا من جهة، ومن جهة أخرى ونتيجة للقصف المتكرر الذي تعرضت له المستشفيات، فقد تم افتتاح مراكز إسعافية بسيطة.. أخرى جديدة: في حارة حريك، وفي منطقة الحمراء، في الصنائع وقريطم وفي مناطق أخرى من بيروت، وحيث حُوّلت بعض المدارس إلى مراكز طبية مثل مدرسة اللاهوت، المدرسة الفرنسية، المدرسة الأرمنية (الهايكزيان) وغيرها.

ويُنقل معظم الجرحى إلى هذه المراكز الجديدة التي جُهزّت بسرعة بالغة.

خلال هذه الفترة اضطررنا إلى الرحيل مرة أخرى من المنـزل الذي انتقلنا إليه لنقيم في بيت آخر في شارع الحمراء، في محاولة للابتعاد عن مناطق القصف. وفي هذه الأثناء انتقلتُ للعمل في مركز طبـي جديد، في المدرسة

الأرمنية (الهايكزيان) الواقعة في منطقة الصنائع بالقرب من شارع الحمراء.
ونتيجة الانتقال إلى البيت الآخر الجديد، والموقع الجديد لعملي والذي كان في دور التجهيز والأعداد، انقطعتُ عن العمل لعدة أيام، كنت أشعر خلالها بمزيد من الإرهاق ومزيد من الأرق، بعدها أدركت... أن العمل.. والعمل وحده.. هو الباعث الوحيد للراحة النفسية ولاستمرارية الذات على الرغم من كل إرهاقات العمل في بعض الأحيان.
صحيح أن الموت شيء كريه.. كل إنسان في هذا العالم يحب العيش والحياة ويحاول الابتعاد حتى عن فكرة الموت.. إنها الغريزة الطبيعية للذّات الإنسانية.
ولكن ما أكره الموت.. عندما يكون هو الشيء الوحيد الذي تنتظره في كل لحظة.. ما أكرهه عندما يكون وحده شاغلك الوحيد.
ما أقسى أن تجلس في البيت. بلا عمل.. سوى انتظار الموت من قذيفة قد تصل إليك.. أو سقف قد يهبط عليك.
في زمن الحرب.. بالعمل.. والعمل وحده.. يتمكن الإنسان من الانتصار على ظاهرة ترقب الموت.. وكل حالات الضعف الإنساني الأخرى..
وتنشر الصحف صبيحة أحد الأيام صورة لفتاة من بيروت الشرقية.. تقدم باقة ورد لجندي "إسرائيلي" يعتلي ظهر دبابة ممن دخلوا منطقة بعبدا ومناطق من بيروت الشرقية.
يا لهذا الزمن الرديء.. العملاء الكتائبيون يقابلون دبابات الغزو بباقات الورود. أفي تلك الظاهرة تمثّلت إنسانيتهم؟؟.
إنسانية من يحاولون الفصل بين الوطن والوطن؟؟.
إنسانية من يحاولون الفصل بين المدينة والمدينة؟؟.
إنسانية من يحاولون الفصل بين الطفل والطفل؟؟.
من شُرف نوافذهم.. ومن على أسطح البنايات يراقبون مسرحاً حياً. حيث طائرات العدو تقصف إخوانهم.. أبناء وطنهم.. وأطفال المنطقة الأخرى من المدينة الواحدة. في موسم الدمار والقتل.. الدبابات "الإسرائيلية" تأخذ من بيوت أهالي بيروت الشرقية متاريس لها.. كانت تزرع الموت في المنطقة الأخرى من المدينة.. وهم يتفرجّون..
ويهتز الضمير العالمي ضد جرائم النازية الجديدة.. ويتضامن مع أبناء بيروت الغربية. أما هم.. فلم يهتزّ لهم ضمير!!.
إنهم فعلاً.. بلا ضمير.. أولئك الذين يقابلون دبابات الغزو بباقات الورود...
ويُطبق الحصار على مدينة بيروت.. بعد أن فشلت كل محاولات تقدم القوات الغازية للدخول إلى الجزء الغرب-ي منها..
ورغم استعمال "الإسرائيليين" لكل أنواع الأسلحة الحديثة.. فقد صدّتهم قواتنا المشتركة، صدّتهم إرادتنا.. وإيماننا بعدالة قضيتنا.. وأسلحتنا البسيطة.
إنهم يحاصرون المدينة.. يستعملون كل أسلحة القتل.. ولم تستسلم المدينة.
إنهم يجرّبون سلاحاً من نوع آخر يضيفونه إلى قائمة أسلحتهم.. يمنعون وصول الماء.. والكهرباء.. والتموين.. والأدوية.. عن ساكني بيروت الغربية.. ويطول

الحصار.. ولا نستسلم.

في هذه الأثناء بدأتُ العمل في مركز "هايكزيان" الطبـي.. في الطابق الأرضي للمدرسة. كان الجرحى يملأون القاعة. وفي ملجأ كنيسة المدرسة كان يسكن مئات المهجرين، ممن تركوا مناطقهم.. من صبرا.. وشاتيلا ومناطق أخرى من الناحية الجنوبية لبيروت.

وفي محاولة للتعرف على أحوال المركز وأوضاع المهجرين، دخلتُ وليلى، التي تقرر لها كذلك أن تعمل معي في هذا المركز، دخلنا إلى ملجأ الكنيسة حيث المهجّرين.. وذُهلنا. مئات الناس من الشيوخ والنساء والأطفال يتجمعون في الملجأ، تقترب من كل واحد منهم.. فتشعر بهمجية الحصار.. إذ إن رائحة العرق تنبعث من أجسادهم.. فالماء لا يتوفر حتى للشرب.. فكيف به للاستحمام!؟.

كذلك كان الحال بالنسبة للمهجّرين في الأجنحة الأخرى من المدرسة، حيث كان الأطفال يفترشون الأرض. وفي هذا الجو الصيفي الحار من شهر تموز.. لا يتوفر الماء. طفل ملقى في إحدى الزوايا مصاب بمرض الحصبة.. سيكون مصدر عدوى بالطبع لغالبية الأطفال المتواجدين، أطفال آخرون.. كثيرون.. يعانون من التهابات معوية حادة.. تتمثل في التقيؤ والإسهال وجفاف الجلد.. منذ اللحظة الأولى أدركتُ أن مهمتي لن تكون سهلة. وبالفعل ما كدت أخبرهم بوجودي، حتى امتلأ المركز الطبـي بالمراجعين، وكنت قد نظّمت أن يكون جزءاً منه مكاناً لعيادة خارجية.

كان معدّل الحالات المرضية التي استقبلها في اليوم الواحد تتجاوز السبعين حالة.. واستمرّ الوضع هكذا لمدة عشرة أيام تقريباً.. وبعد أن خفّت حدة المرض لدى المهجرين في المدرسة والكنيسة.. خصصّت ساعتين يومياً للذهاب لعلاج الحالات المرضية في البنايات المجاورة التي يقطنها المهجّرون... مثل مدرسة "رمل الظريف" و"دار الحكمة" ومدارس أخرى.

وبالطبع فإن أحوالهم الصحية في هذه الأمكنة لم تكن بأفضل منها في ملجأ الكنيسة أو المدرسة الأرمنية. كنت أعمل طوال النهار، أوزع وقتي بين الإشراف على الجرحى المتواجدين في قاعة المركز، وبين غرف الإسعافات الأولية التي أنشأناها لاستقبال جرحى القصف، والوقت الباقي للعيادة الخارجية.

بالطبع كنا نوفّر كل الأدوية لمرضى العيادة الخارجية. وهنا لا بد من الإشارة إلى الدور الرائد للهلال الأحمر الفلسطيني أثناء الحصار، سواء من ناحية إنشاء مراكز طبية أو مستشفيات جديدة. والسرعة التي أتمّ بها ذلك أو من ناحية توفير الأدوية اللازمة لها، بالإضافة إلى العمل على توفير الماء والغذاء اللازمين لهذه المراكز والمستشفيات، بالطبع ضمن حدود الإمكانيات المتوفرة لديه في ظل الحصار.

كان لزاماً عليّ أن أذهب إلى مقر عملي يومياً، مشياً على الأقدام. فالحصار امتد إلى المحروقات وبالطبع البن‌زين. ومن ثم إلى السيارات التي توقفت عن العمل.

أعبر المسافة بين البيت والمركز الطبـي، وفي الأنحاء المتفرقة من بيروت الغربية. كانت النفايات وأكوام القمامة تكبر وترتفع يوماً بعد يوم، رغم كل

محاولات القضاء عليها عن طريق الحرق.
الأوضاع التي عاشها أهل المدينة، أيام الحصار كانت فظيعة في قساوتها.. ويومياً ورغم القذائف، كانت جموع غفيرة تتجمع على أبواب بعض الأفران التي بقيت تعمل.. وذلك من أجل تأمين رغيف خبز للعائلة.. وللأطفال..
وكانت جموع أخرى تقف طوابير على أبواب بعض محلات التموين التي كانت تبيع بقايا ما كان موجوداً فيها من قبل.
في من-زلنا كذلك، عانينا من عدم وجود الماء والكهرباء وقلّة مواد التموين. أذكرُ في إحدى المرات، وفي سيارة أحد الأصدقاء أخذنا جالونات الماء في محاولة لتعبئتها، وطالت المسافة بنا.. امتدّت إلى مكان قرب مستشفى عكا على طريق المطار، حيث كانت ماسورة ماء قد ثُقبت من جرّاء القصف، فملأنا جالونين فقط.. ما أعظم ما شعرتُ به.. كما لو أنني قد حققت إنجازاً عظيماً.. كما لو أنني انتصرت.
وكان شعار المدينة.. البطلة قد تمثل في جملة "المزيد من الصمود". رغم كل ظروف القتل والتجويع والحصار.. لن ترفع بيروت الرّايات البيضاء.. بيروت ستبقى وردة بيضاء.. على صدر مياه المتوسط.
يوم الأحد، الأول من آب.
اليوم الأكثر سواداً في تاريخ الحرب والحصار. استمرّ القصف فيه عشرون ساعة متتالية.
الساعة الثانية بعد منتصف الليل... أضواء لامعة بين فترة وأخرى تشقّ ظلام بيروت الثكلى.. تتوالى القذائف.. تتساقط في كل الأنحاء.. ويصمد الناس.. كل الناس.. بعد يوم كان لهم فيه من الإرهاق قسط كبير... كثيرون لم يكونوا قد ناموا بعد.
بدوري لم أتمكن من النوم سوى ساعتين فقط.. أسمع أصوات انفجارات بعيدة.. افتح عينيّ.. ها أنا بين النوم واليقظة... صوت آخر.. انفجارٌ قريب.. اصحو.. نصحو.. اهبّ واقفاً.. لربما القذيفة التالية ستأتي في البناية.. ألبس ثياب-ي.. وأهرع مع ليلى إلى الممر.. نحاول الن-زول إلى الملجأ.. لكن الظلام الدامس وأحوال الملجأ السيئة تمنعنا من الن-زول.. نقررّ البقاء في الممرّ.
سكان الطوابق العليا من البناية ين-زلون إلى الأسفل... وبانتظار أن يهدأ القصف، مضت ساعات.. وأقررّ النوم.. لقد مللت (الشحشطة).
الساعة السادسة صباحاً.. يأتي بعض الأصدقاء من منطقة كورنيش المزرعة.. يحملون أخباراً مفادها إن هناك محاولات "إسرائيلية" للتقدم على طريق المتحف - أحد بوابات بيروت الرئيسية بين شطري العاصمة - "الإسرائيليون" وعملاؤهم في إذاعة الكتائب.. يعلنون عن تمكّن القوات الصهيونية من إحراز بعض التقدم على طريق المتحف.. وفي منطقة المرفأ..
إذاعة الثورة تنفي النبأ.. وتؤكد أن مقاتلينا تمكنوا من إفشال كلّ محاولات التقدم "الإسرائيلية"، شدّة القصف البحريّ والبريّ، وعدم استعمال الطيران.. وغير ذلك من الظواهر.. تؤكد أن الاجتياح للمدينة سيتم هذا اليوم تحديداً، خاصة وأن مجلس وزراء العدو الصهيوني قد انعقد في جلسة طارئة مساء أمس.

الجميع في بيروت، ومنذ ابتداء المعارك يتابعون بقلق اجتماعات مجلس وزراء العدو، وما يصدر عنها من قرارات.

في هذا اليوم غالبيّة الناس في بيروت.. عاشوا هاجس الاجتياح... طيلة فترة الحصار، خيارنا الوحيد هو الصمود.. أن نقاوم.. لكن الاجتياح يعني.. تدمير الحياة.. كل أشكال الحياة في بيروت.. وقتل كل الناس.. مئات الآلاف من البشر.

الاجتياح.. بالنسبة للمدنيين.. يعني رعباً قاتلاً حقيقياً.

لكنّ مقاتلي القوات المشتركة بمقاومتهم الباسلة وعنفهم الثوري تمكنوا من إفشال مخطط العدو مما اضطره إلى التراجع من بعض المناطق، التي كان قد احتلّها من قبل.

وهنا أدركَ الغزاة مدى الثمن الباهظ الذي سيدفعونه فيما لو تمكنوا من اجتياح بيروت الغربية. لقد أراد العدو في هذا اليوم أن يحرز المزيد من التقدم على الأرض، وهذا ما كشف حقيقته بعض المسؤولين العسكريين في "إسرائيل" فيما بعد.. حيث اعترفوا بضراوة المقاومة وعدم تمكنهم من إحراز نجاح لتحقيق ما خططّوا له.

تقترب الساعة من التاسعة صباحاً. والقصف لا يهدأ... قذائف تسقط.. وحرائق تشتعل بالقرب من منـزلنا.. يعلن الراديو أن منطقة الحمراء تتعرض هي الأخرى للقصف، بما في ذلك الشارع المؤدي إلى منطقة الصنائع، وهو الطريق الذي أسلكه للوصول إلى العمل.

لم أستطع الذهاب للمركز بطبيعة الحال، إلا بعد الظهر.. عندما خفّت حدّة القصف بعض الشيء. ضايقني بل آلمني كثيراً أن لا أستطيع الوصول إلى مرضاي.. إنهم وفي هذه الساعات بالتحديد أحوج ما يكونون إليّ، وأنا قابع في منـزلي.. أرقبُ الموت.. ولا أستطيع أن أفعل شيئاً.

رغم القصف استطعتُ الوصول أخيراً.. ها.. قد وصلت، ما أروع هذه اللحظة... الجرحى والمهجّرون كانوا في الملجأ، أكداس لحم بشرية في مساحة ضيقة جداً لا مكان حتى للمرور بينهم.

ويذكّرني هذا المشهد بالأفلام السينمائية المرعبة التي صورّت مآسي الحرب العالمية الثانية، الجرحى في الملاجئ يختلطون بالسكان المدنيين، وقذائف الفاشيين تسقط بالقرب منهم.

بعد وصولي بخمس دقائق فقط كانت البنايات المجاورة تتعرض لقصف عنيف ومركّز.. أصوات الانفجارات تصم الآذان.. حتى في الملجأ.

الكل كان ينادي عليّ، البعض كان يريد أن أجلس بجانبه. على ما يبدو أن الجرحى والناس يشعرون بدفء وأمان كبيرين عندما يجلس الطبيب بالقرب منهم. يتصوّرون أن الطبيب مُحصّنٌ ضد الموت أو الإصابة. الطبيب في هذه اللحظة هو المنقذ، على الأقل فيما لو أصيبوا هم، فسيجدون من يسعفهم.

في الثامنة مساء كان القصف قد هدأ. إنها هدنة غير معلنة، وبالرغم من ذلك فإن الجرحى والمهجرّين باتوا ليلتهم في الملجأ، من باب الاحتياط لما قد يحصل.

يوم الخميس الثاني عشر من آب

اليوم الأكثر رهبة ووحشة في مدينة بيروت منذ بدء المعارك. فقد بدأت غارات الطيران "الإسرائيلي" المتكررة منذ السادسة صباحاً واستمرت مدة اثنتي عشرة ساعة متتالية، لم يغب خلالها الطيران عن سماء بيروت ولا حتى خمس دقائق.

كل من في بيروت كان يترقب صاروخاً قادماً من طائرة قد يدمّر المكان المتواجد فيه.

بيروت تحترق.. أقرأ في العيون.. حتى عيون الأطفال.. ألف سؤال وسؤال.. وماذا بعد؟؟ وأين هي طائراتنا العربية؟ وأين؟ وأين؟.

الموت... ينتشر في المدينة.. لعلّه أصبح جزءاً من مكونات هوائها.. لعلّه أصبح ضرورياً للتنّفس!.

كثيرون من الناس لم ين-زلوا إلى الملاجئ، فالأنباء تتحدث عن الطائرات التي أخذت تقصف الملاجئ.

الكلّ يقول.. أريد الموت وأنا في الهواء.. ويعتقد أن الموت مختلف!. الموت.. موت.. في طابق عال.. أو في الملجأ.. لا فرق.

في هذا اليوم.. شعور غريب أرقبه في عيون الجرحى.. خوف متزايد.. أحاول أن أقطع الصمت القلق، المصغي لأصوات الغارات، المترقّب للموت.. وذلك بالحديث معهم.. ولكن لا أستطيع لأكثر من لحظات معدودة فقط، ومن ثم يُطبق الصمت الموحش على القاعة مرّة أخرى.

تتوالى الساعات.. وعلى ما يبدو أن الغارات الأولى قد نجحت في إعطاء الجُرعة المضادة للخوف من الطائرات في دم الجرحى. أغلبيتهم بدأت الخروج عند الظهر إلى ساحة المدرسة، يراقبون الطائرات، هي تقصف أمكنة قريبة نسبياً من المركز الطب-ي.

في هذا اليوم شعرت بحنين كبير إلى أمّي، الطاعنة في السن والمريضة، منذ بداية الحرب. انقطعت عنّي أخبارها.. يلحّ عليّ خاطر.. أنها ماتت.. فلا احتمل الفكرة.

الموت هو الآخر قريب منّي... كما هو بالنسبة لأي إنسان في المدينة، أحدّث ذاتي: إذا كان قدري الموت.. فليكن ذلك.. ولكن كيف سيكون وقعه عليها؟... إذ لا أستطيع أن أتصوّر أن يُنقل إليها نبأ موتي... تمنّيتُ لو تموت قبلي!.

خواطر... وخواطر... كلها تمّر... ولكن... ضمن دائرة الموت. واسألُ نفسي... أهو التشاؤم؟ أهو الخوف؟أهو الإرهاق والملل من البقاء في الدائرة؟.. أم أنّه كلّ ذلك مجتمعا؟...

ولا أجد تفسيراً منطقياً... سوى أن ما يجري وأن ما نراه بأعيننا يدور هو الآخر.. في دائرة الموت.

الجميع أصابهم التعب، الإرهاق.. بلغ منهم مداه.. لا نستطيع التحمل أكثر..

أمنية تنبع من الداخل.. بأن يُعلن وقف إطلاق النار.. ولكن كل نشرات الأخبار تخلو من هذا الإعلان.. ويلّف مؤشر الراديو على نشرة جديدة.. في محطة أخرى..

وهكذا دواليك.

ها هو الفرج.. يأتي أخيراً.. وقفٌ لإطلاق النار ابتداءا من الساعة الخامسة مساء.. أتى جرحى كثيرون إلى المستشفى.

عدتُ إلى البيت منهكاً.. كان جهازي العصب-ي مُستنفراً طيلة الوقت. فجأة أخذ يرتخي.. مما زاد في تعب-ي.

ما حدث في هذا اليوم.. كان رهيباً... عند ظهيرة اليوم التالي، ذهبتُ مع صديق في سيارته حيث زرنا الأماكن التي تعرضت للقصف أمس.

الكلمات لا تسعفني لتصوير ما رأته عيناي من دمار. كانت الحرائق لا تزال مشتعلة... لم تبق بناية تقريباً إلا وأصابتها قذيفة.. البنايات مدمّرة بالكامل.. كنتَ ترى الهدم في كل شارع تقريباً. وتقارن بين بيروت الحطام.. وبيروت الأمس قبل ثلاث شهور فقط.. وتجد البون الشاسع. من يمشي في بيروت الدمار بعد هذا اليوم العنيف من الغارات الجوية، لا يستطيع تصديق عينيه، تحسبها مدينة... دُمرّت في الحرب العالمية الثانية.. أو.. حتى الأولى.. مدينة مهجورة.. لم تمتد إليها يدٌ بشرية منذ عشرات السنين.

الشيء الوحيد الذي يشعرك بأن ما حدث كان بالأمس، هو الحرائق المشتعلة.. ورائحة البارود الطازج.. والشظايا المنتشرة في كل الأمكنة.. وجثة طفل تحت الردم هنا، وجريح آخر يئنُ هناك ولم تأته سيارة إسعاف بعد.

ما حدث بالأمس كان أكثرَ من رهيب!!.

الرحيل

لقد خسرنا ساحة ولكننا كسبنا الثورة وبها سنواصل مسيرتنا حتى الانتصار.

21 آب 1982 وأيام أخرى تالية.

بيروت تودّع عاشقيها ومَن دافع عنها بالدموع وأكاليل الغار.

بيروت تودّعهم بحبات الرّز والرصاص ووفاء القمح.. وكل عطر الأرض.

المشهد كان عظيماً. ذلك اليوم كان يوماً خالداً من أيام بيروت، تجسّد فيه الوفاء والعرفان.. في عيون الأطفال.. وقلوب العذارى.. ونحيب الشيوخ.. وزغردة النساء. تجسّد في كل سيقان الشجر التي بقيت واقفة رغم كل قذائف الحاقدين.. أحرقت أوراقها وجذوعها لكنّها مُنتصبة. في ذلك اليوم، الوفاء.. تمثّل حتى في نسمات الهواء.. في الشوارع.. وفي ركام الهدم.. كل شيء كان حزيناً، ولكن تملؤه الكبرياء.

أتعرفون كيف يكون شكل الحزن.. والكبرياء؟؟ وهما يختلطان معاً؟؟.

أجل كان في بيروت عندما كانت تودّع الدفعة الأولى من المقاتلين الفلسطينيين.

أمواج البحر.. هي الأخرى كانت حزينة.. غاضبة.. ورقيقة.. حنونة.. ودافئة في آن معاً. حزينة... لأنها تحمل المقاتلين، تبعدهم إلى شواطئ أخرى من البحر. غاضبة.. لفراقهم المؤقت.

ورقيقة.. وكأني بها تدرك هول الموقف.. لقد أصبحت هادئة تماماً فلا هدير

لمياه البحر. حنونة.. وهي تحيط السفن الراسية... الراحلة إلى الشاطئ الآخر. دافئة.. وهي تعي عظمة من تحمل.

يتجمع المقاتلون منذ الصباح الباكر في ساحة الملعب البلدي وسط بحر من الجموع الغفيرة التي لا تُحصى من أهالي بيروت وقد أتوا للوداع.

عيون الفارس كانت مغرورقة بالدموع.. وبيروت.. العروس.. لبست ثوبها الزاهي رغم قتامة الحصار. في هذا اليوم.. بيروت لا تود أن تُزّف إلى العريس وهي ترتدي السواد.. بيروت تجتاز السواد.

يركب المقاتلون الشاحنات المعدة لرحيلهم، يشقّون طريقهم بصعوبة بالغة وسط بحر الجماهير المحتشدة في ساحة الملعب البلدي.. وعلى جانبـي الطريق المؤدي إلى المرفأ.. ومن على شرفات المنازل. ولأول مرة لا يُستعمل المداد.. ولا يُطبع الموقف السياسي على الورق، فهو قد تمثّل في الدموع وفي أزيز الرصاص.. وقد انهمرا بشكل غزير إجلالاً للوداع.... تمثلّ في حبات رزّ وقطرات عطر... وأزهار جورية ورائحة الياسمين.. رشّتها جماهير بيروت على قوافل الراحلين.. ولأول مرة، تستعملُ العيون لغتها بهذا الشكل التعبيري الواسع والرائع.. عِوضاً عن الكلام. الأيادي ترتفع هي الأخرى محييّة مودعة.. ترسم علامة النصر.. وتشددّ من قبضاتها وحقدها على الأعداء.. اللافتات في كلّ زاوية.. على جانبـي الطريق.. ترتفع حتى من وسط ركام الهدم.. تُشهر عشقها الأزلي للراحلين.

الأعلام الفلسطينية واللبنانية تتعانق هي الأخرى وترفرف في كل الأماكن... وعلى الشاحنات المتجهة إلى المرفأ.. بيغن كان يصرّ على انسحاب المقاتلين الفلسطينين من بيروت رافعين رايات بيضاء. خسىء هذا الشايلوكي القبيح.. رحل الفدائيّون وهم شامخوا الهامات والرؤوس.. يرفعون بنادقهم دليلا على استمرار المقاومة.

في ذلك اليوم... كان الردّ.. وكان العلَم مرفوعا.. مثل الفلسطيني هو الآخر في كبريائه.

في ذلك اليوم بيروت ودّعت الدفعة الأولى من المقاتلين الفلسطينيين. ويتكرر المشهد في الأيام الأخرى التالية:

الأول من أيلول 1982

عشية هذا اليوم... شعرتُ بالحزن الكبير... وبعظَمة الموقف.. فغداً سأكون وليلى من بين آخر دفعة ترحل عن بيروت.. لم أشعر برغبة في الكلام ليلتها مع أي كان، رغم أن إقامتي في بيروت لم تتجاوز الشهور القليلة.. لكنها بأحداثها الأخيرة.. جعلتني أحسّ بانتمائي لهذه المدينة.. منذ عشرات السنين.

بيروت بأصالتها.. بحنوها وصمودها رغم كل القتل والدمار.. تجبر من يسكنها على الإحساس بأنها أم المدن. فكيف إذن.. سيكون طعم الرحيل عنها؟ كنت أدرك الموقف بكل أبعاده لكنّ تساؤلات كثيرة كانت مصدر حيرة كبيرة بالنسبة لي:

أهذه هي النهاية؟؟.
أهذا هو مصيرنا.. بعد أن صمدنا ودافعنا عن بيروت؟؟.
هل أن ثمن هذا الصمود... هو الرحيل؟؟.
ما هو مصير ثورتنا في المرحلة القادمة؟؟.

وهل؟ وهل؟

لا شيء يثير الحساسية لدى إنساننا الفلسطيني مثلما الرحيل.

لقد عانينا منه كثيراً، نحن نكرهه لأن مراحله كثيرة. الرحيل الأول كان في عام 1948 بعد إنشاء الدولة الصهيونية، انتشر الفلسطينيون بعدها في الأقطار العربية المجاورة.. بلدان الشتات العرب-ي.. وفي أجزاء أخرى من العالم الذي اعتبرَنا لاجئين، مغلوبين على أمرهم يستأهلون الشفقة.. وتقديم المساعدة من خلال بعض الكيلوغرامات من الطحين، وبهذا ينهون قضيتنا... هكذا تصوّرنَا العالم.

الرحيل الثاني.. كان في عام 1967 بعد حرب حزيران، اخترعوا مصطلحاً جديداً لنا يومها وأسمونا.. "نازحين"..

بالنسبة للعالم كانت قضيتنا تتمثل في تقديم المزيد من كميات السكر، والرز، والسمن النباتي، ونصب المزيد من الخيَم لأبناء شعبنا.

وقامت ثورتنا.. وأجبرنا العالم على سماعنا وأفهمناه أن قضيتنا ليست قضية لاجئين.. أو نازحين.. إنها قضية شعب.. يبحث عن وطن... وعن هوية.

وقدمنا الكثير من الشهداء.. وبنضالنا بدأ العالم في استيعاب أبعاد القضية الفلسطينية.

ومع تلك البدايات.. ازداد التآمر.. وكان الرحيل الثالث في عام 1970 بعد معارك أيلول في الأردن.

ولكن الثورة استمرت من الموقع الآخر في لبنان،ّ سواعدنا.. قويت شوكتنا.. وظهر المارد الفلسطيني، واعترفت غالبية دول العالم بحقوقنا المشروعة في فلسطين.. واعتُبرنا.. شعباً.. يناضل من أجل استرداد وطنه.

انتصارات كبيرة استطعنا إنجازها.. لكن هذا بالطبع لم يرُق لأعدائنا، أزعجهم كثيراً وأرهبهم، وكانت معارك لبنان وبيروت، ورغم هذا الصمود الفلسطيني الرائع إلا أننا اضطررنا للرحيل وللمرة الرابعة.

خيارنا كان صعباً بالتأكيد.. فإما التضحية بمدينة بيروت وبمليون نسمة يسكنونها أو الخروج. إخترنا الخروج.. من أجل سكّان بيروت.. ومن أجل الحفاظ على ثورتنا.. كي نبدأ مرحلة أخرى جديدة من الثورة.

تجربتنا في لبنان وبيروت.. كانت قاسية.. لكنها رائعة فيما حملته.

تصورَ العدو الصهيوني أنه يستطيع القضاء على الثورة الفلسطينية ودخول الفاكهاني.. ومقرّ منظمة التحرير الفلسطينية في خلال أيام قليلة فقط. وجاء الجواب الفلسطيني أصيلاً كالعادة.. واستمرّت المعركة فترة ثلاثة شهور تقريباً، استعملوا فيها كل أسلحتهم... ولم يدخلوا بيروت.

شيء عظيم آخر حملته الحرب الأخيرة.. وهو هذا التأييد الواسع لقضيتنا سياسياً

على الصعيد الدولي... إن ما أنجزته ثورتنا من هذا الانتصار السياسي الواسع.. كان بحاجة إلى نضال فعلي جاد لسنوات كثيرة، ولكن المعركة الأخيرة اختصرته في شهور.

لقد تجاوز العالم الغرب ـي لغة تعامله مع "الحمل الوديع".. "إسرائيل" التي تعاطف معها طيلة السنوات الماضية واعتبرها "دولة مسكينة مسالمة"، في هذه الحرب مرة أخرى ظهرت الدولة الصهيونية على حقيقتها.

صحيح أننا نواجه ظرفاً صعباً.. لكننا قادرون على تجاوز كل الصعوبات.. لقد خسرنا "ساحة" لكننا كسبنا الثورة، وبها سنواصل مسيرتنا حتى الانتصار. من خلال كل هذه المفاهيم.. كان قرارنا بالخروج، ونحن مرفوعي الرؤوس.

ولكن تبقى مرارة الرحيل عن بيروت، وصعوبات المرحلة القادمة.

في صباح الأول من أيلول... كنت وليلى نستعدّ للتوجه إلى المكان المقرر للتجمّع.. إيذانا بالرحيل.

الفصل الثاني
الجراحُ.. تشهد

الطفلة سوزان الأشقر

العمر عشر سنوات.
تسكن في مخيم برج البراجنة.
في اليوم الرابع لبداية الحرب، سقطت قذيفة على بيتهم فأشعلته. سوزان وإخوتها الثلاثة كانوا في إحدى غرف البيت. استشهد إخوتها، وأصيبت هي بحروق بالغة في وجهها ورقبتها وفي بطنها، شظية استقرت في ساعدها الأيسر مما أدى إلى بتره.
أحضرت إلى مستشفى غزة للإسعاف. حدة صراخها كانت تطرق شغاف القلوب، تدق عليها بعنف، حيث إن من سمعها، كان يود لو استطاع أن يفعل شيئاً.. أي شيء.. من أجل تخفيف آلام هذه الطفلة.
والدتها.. وقفت على باب غرفة الطوارئ.. هي الأخرى كانت في حالة ذهول.. تنتحب.. ثم تصرخ.. أثناء إجراء الإسعافات للطفلة سوزان، سألتني: "هل من الممكن أن أعيش؟" وقالت: "أنا لا أريد الموت"!!..
أمي فقدت كل إخواني..
والدي استشهد في الزعتر.."
في مركز "هايكزيان" الطبـي، ومنذ افتتاحه أحضرت عائلة مكونة من:
الأب: محمود فتحي.. مصاب بجروح في قدمه اليسرى.
الأم: فاطمة.. مصابة بحروق في وجهها وبجرح في رأسها.
الطفل أكرم: وقد كان سليماً غير مصاب.
الأب - مقاتل.. في موقع متقدم على طريق المطار.. منذ بداية الحرب، انتقلت العائلة من "صبرا"، التي كانت تتعرض للقصف "الإسرائيلي" العنيف، إلى كنيسة "مار ساويروس" في منطقة برج أبـي حيدر. واستقرت هناك. كان الأب يعتقد.. أن الكنيسة لن تتعرض لأنها كنيسة!! وأماكن العبادة، في العادة لا تقصف.
مساء أحد الأيام.. حضر الأب لزيارة عائلته، للاطمئنان عليها... فجأة.. قذيفة سقطت على قبة الكنيسة واخترقتها. ويصاب كل من في الكنيسة بجراح وحروق. كما استشهد البعض ممن أصيبوا.
من بين المصابين كان الأب (محمد فتحي) والأم والطفلة (فاتن). وبعد أن أجريت لهم الإسعافات، بقوا في المركز.
كان المنظر رهيباً:
الأم مستلقية على السرير.. وهي معصبة الرأس..
الطفلة، المعصبة الرأس هي الأخرى، كانت ترضع من ثدي أمها بحنان بالغ.

علي حسين

العمر 25 سنة.

مقاتل من جيش التحرير الفلسطيني.. أصيب بكسر في ساقه اليمنى نتيجة لشظية أصابته أثناء المعارك.

أدخل إلى المستشفى للعلاج، الجبس يغطي ساقه بعد إجراء عملية جراحية.

مضى أسبوعان. "علي" يصر على الذهاب إلى موقعه المتقدم في منطقة الفنادق. رغم إلحاحي عليه بالبقاء، أصر كثيراً على الخروج، وبالفعل خرج.

علاقة حميمة ربطتني بهذا المقاتل.

بعد محاولات التقدم الصهيونية في الرابع من آب، حضر "علي" ليطمئن على ساقه، طلب مني إجراء صورة أشعة لها.

كان بصحبته مقاتل آخر اسمه ناصر عبد اللطيف، مصاب في قدمه اليمنى، بصعوبة كان يمشي هو الآخر. أصر على إجراء صورة أشعة فقط، رغم إلحاحي بضرورة بقائه في المستشفى، لكنه رفض.

تحدثت وناصر عن معركة الرابع من آب. تحدثنا طويلاً عن روعة مقاتلينا، عيناه غصت بالدموع وهو يتحدث عن رفيقيه اللذيّن استشهدا بالقرب منه، وهما يعبئان القذائف لمدفع الهاون.

عبد الله أحمد

العمر 29 سنة.

مقاتل من قوات الردع السورية العاملة في لبنان. أصيب في منطقة بالقرب من بيروت، أثناء تصديه لقوات الاحتلال الصهيوني بتاريخ 9/6/82.

أحضر إلى مستشفى غزة، وكان مصاباً بإصابات بالغة وكبيرة، في مختلف أنحاء جسده. بالكاد ينطق همساً بالحروف والكلمات أثناء إجراء الإسعافات اللازمة له. كان آخر ما نطق به:

"سأبقى معكم... حتى.... آخر.... قطرة....".

بعدها لفظ أنفاسه الأخيرة.

في جيبه. كانت بطاقة لقوات الردع... وكان من مواليد مدينة أريحا.

دولت مطرية

طفلة في الحادية عشر من عمرها.

من سكان مخيم تل الزعتر.

بعد مذبحة الكتائبيين لسكان المخيم عام 1976 اضطر أهلها للانتقال إلى الدامور. بعد معارك الحرب الأخيرة، اضطرت العائلة للرحيل من الدامور إلى مكان أكثر أمناً. هذا بالنسبة إليهم كان الرحيل الخامس. انتقلت العائلة إلى منطقة "الروشة" في بيروت، المنطقة مواجهة تماماً للبحر.

أهالي مخيم تل الزعتر، ارتبطوا بالعطاء للثورة. في الروشة، كانت الأم وابنتها

دولت وامرأة أخيها يساعدن في تحضير الطعام.
وفي أحد أيام القصف، ذهبت الأم إلى البيت. في المكان المقابل للقاعدة بقيت دولت والمرأة في القاعة لتحضير وجبة الغذاء.
فجأة تأتي الطائرات "الإسرائيلية" للإغارة. نـزلت دولت مع المرأة إلى الملجأ مع كثير من الناس وبعد انتهاء الغارة، وأثناء الخروج من الملجأ، تعاود الطائرات هديرها، وترمي بحممها على المنطقة. شظية استقرت في الساعد الأيسر لدولت. إصابتها كانت بالغة، تسببت في شلل دائم ليدها اليسرى، أما المرأة فقد بقيت سالمة.
والدة دولت وأخوها... استشهدا في البيت حيث ذهبت الأم...

خانم أحمد

امرأة في السبعين من عمرها.
تسكن منطقة "المصيطبة" مع ابنها المريض.
حاول خانم الخروج أثناء اشتداد القصف لتطمئن على ابنتها التي تسكن بالقرب منها.
فجأة.. ينهار حائط. حجر كبير يسقط على ساقها اليمنى.. مما أدى إلى بترها - من فوق الركبة - حفيدتها سحر، البالغة من العمر عشر سنوات، أصيبت في حوضها.
في لحظة تسجيلي لوقائع إصابة الحاجة خانم، دموع تترقرق من عينيها... واقرأ فيهما تساؤلاً: "ألم يحترموا شيخوختي؟؟".

أديب نور الدين

العمر 21 سنة.
من مواليد النبعة، لبناني الجنسية. عرب ـي الانتماء. انضم إلى الثورة في عام 1975.
منطقة النبعة جزء من ضواحي بيروت وهي مرتبطة بالتاريخ الوطني للبنان.. وتعتبر من المناطق التي اشتهرت بالعطاء الثوري. في معارك 1976 وخلال الحرب اللبنانية سقطت النبعة في أيدي الكتائبيين.
اضطر أديب، وكما قررت له الثورة أن ينتقل إلى الجنوب - في منطقة بنت جبيل.. المنطقة الحدودية مع فلسطين المحتلة.
في إحدى المعارك التي دارت مع العدو الصهيوني عام 1977 في المنطقة المذكورة، أصيب أديب في ساقه اليسرى، مما أدى إلى بترها من فوق الركبة، استطاع مواصلة المشوار.. والعطاء.
في المعارك الأخيرة، وفي اليوم الرابع تحديداً، كان أديب بالقرب من جهاز اللاسلكي في موقع قريب من مدينة النبطية..
يشتد القصف، ثلاثون قذيفة تقريباً تسقط في الدقيقة الواحدة. أصيب بشظايا

متعددة من إحدى القذائف المنثارية واستقرت إحداها في ساقه اليمنى، وتحديداً في كعبها مما أدى إلى بتر جزء كبير منه. أديب يشكو تعاسة حظه، إذ إنه لم يتمكن هذه الفترة من مقاتلة العدو.

فاطمة حمد حمد

العمر 46 سنة.

لبنانية من سكان منطقة رأس بيروت.

في حرب السنتين وفي عام 1976 استشهد ابنها جمال وهو في العشرين من عمره على أحد المحاور.

في 10 آب من نفس السنة استشهد زوجها في منطقة النبعة بعد سقوطها في أيدي العصابات الكتائبية.

في 11 آذار من نفس السنة استشهد أخوها في منطقة سن الفيل.

وفي هذه الحرب، وتحديداً في 10/6/82 استشهد ابنها جهاد وعمره 23، سنة في منطقة الفنادق.

فاطمة... أم ربيع... أم الشهداء... جاءتني، بعد ثلاثين يوماً من استشهاد ابنها جهاد، تطلب التطوع للعمل في خدمة الجرحى.. لفت انتباهي اتشاحها بالسواد. لم أشأ أن أثقل عليها بالسؤال عن السبب.

ولكن في صباح اليوم التالي حاولت استيضاح الأمر.. وبطريقتي دعوتها لتتكلم.. كنت أهاب الموقف، خجلاً من توجيه الأسئلة إليها.

بمجرد جلوسنا.. وقبل أن أبدأ كلامي، فهمت الخالة أم ربيع ما كنت أقصده بطلب-ي. وحكت لي قصتها. وفي النهاية قالت: إن سلواها... عزاءها... هو أن تعمل في خدمة الجرحى.. تتصور أن كل جريح هو ابنها.

خيوط كثيرة تربط الخالة أم ربيع بالجرحى، الذين ينتظرونها بفارغ الصبر صباح كل يوم، فهي دوماً تبعث الأمل والتفاؤل فيهم.

في أحد المرات حاولت التخفيف عنها.. احترت كثيراً في كيفية إقناعها بخلع الملابس السوداء، خاصة وأنها تعمل بين الجرحى. وابتدأت الحديث:

"خالة أم ربيع.. ما أعظمك.. وما أوفى عطائك. وما أسمى وأروع وأشرف ما قدمته للثورة.. إنه أعز ما تملكين.. ولديك، أخاك وزوجك... وتصرين على خدمة الجرحى....".

أردت إكمال الحديث، لكنها استوقفتني قائلة: "معذرة يا دكتور.. لا أستطيع أن أخلع السواد. لم يمض على استشهاد ابني سوى خمسة وثلاثون يوماً، أفهم ما تقصده، لكنني سأرتدي المريول الأبيض أثناء العمل"... وانتهى حديثنا.

دمعتا حزن، من عيون ملائكية اخترقتا جدار الصمت الذي لفني بعدما قالته. سرحت طويلاً في عظمه شعبينا الفلسطيني واللبناني. ما أعظم الوفاء... عندما يحمل طعم الاستشهاد والتضحية في سبيل الوطن.

إسماعيل حسن منوَّح

العمر 25 سنة.

يعمل على إحدى سيارات الإسعاف. يُعتبر أحد الجنود المجهولين الذين كان لهم دور مميز وواضح في الحرب الأخيرة. بمجرد أن تتعرض منطقة للقصف.. ما يلبث أمثاله أن ينطلقوا بسياراتهم وسط الصواريخ والقذائف إلى أمكنة الدمار من أجل إنقاذ إنسان جريح.. يقدمون له الإسعافات الأولية، ومن ثم ينقلونه إلى المراكز الطبية لاستكمال علاجه.

لكن سيارات الإسعاف، لم تفلت هي الأخرى من حمم القذائف والغارات الجوية الصهيونية فما أن تهرع باتجاه أماكن القصف، حتى تعاود الطائرات غاراتها التالية.

ضباط الإسعاف، في عملهم، يعيدون للإنسانية وجهها... بعدما أجهضت الصهيونية كلمة "الإنسانية" من كل معانيها الآدمية.

ضباط الإسعاف.. يعيدون للحضارة رونقها، بعد أن حاولت الصهيونية مسح الوجه الحقيقي للحضارة.

ضباط الإسعاف يعيدون للأشياء... لونها، نضارتها، في الوقت الذي يصر فيه الصهاينة على نشر طعم الموت في كل الزوايا.

في هذه الحرب، كان إسماعيل يعمل في النبطية، ينقل المصابين إلى المستشفى، ونظراً لكثرة الجرحى، وخطورة بعض الحالات، كان يضطر لنقلها في سيارته إلى مستشفيات مدينة صيدا... لذا ينتقل ما بين النبطية وصيدا.

في أحد المرات وأثناء تواجده في صيدا، بعد إحدى الغارات الوحشية على منطقة، "مغدوشة" بالقرب من المدينة، ذهب إسماعيل كعادته إلى منطقة القصف فنقل أربعة جرحى من مغدوشة إلى مستشفى في قلب المدينة.. أثناء عودته إلى منطقة القصف، محاولاً نقل المزيد من الجرحى، استأنفت الطائرات الصهيونية غاراتها، وتعرضت سيارته لملاحقة الطائرات، كانت سيارته الوحيدة التي تسير على الطريق.. ابتدأت الطائرات برماية السيارة بالرشاشات، فتركها إسماعيل واتجه نحو مكان أكثر أمناً. وما كاد يقفز من السيارة ويبتعد أمتاراً عنها حتى انفجر صاروخ في منطقة قريبة منه.. شظايا أصابت رأسه وسببت له إغماءا طويلاً، شظايا أخرى اخترقت ساعده الأيمن فأدت إلى شلله.

يصحو إسماعيل بعد عشرة أيام وهو يرقد على السرير في مستشفى غزة بعد نجاته من الموت بأعجوبة.

آخر ما يتذكره: مشهد سيارة الإسعاف وهي تحترق.

سعيد أحمد غزاوي

العمر 19 سنة.

فلسطيني يسكن في مخيم اليرموك بالقرب من دمشق. ارتبط بالثورة منذ أربع سنوات، وهي فترة إقامته في لبنان، مع بداية المعارك تحدد موقعه في "حي السلم" في الضاحية الجنوبية لمدينة بيروت.

عندما دخل "الإسرائيليون" مطار بيروت وبعد احتلالهم لتلة الكوكودي القريبة

منه، طلبوا وقف إطلاق النار لإجلاء خسائرهم الكبيرة. في الساعة الثالثة صباحاً من اليوم التالي واصلوا قصفهم المركّز على منطقة كلية العلوم، أخذوا يتقدمون نحوها. في الوقت نفسه كانوا قصفوا "حي السلم".

كان سعيد ضمن مجموعة من عشرة مقاتلين، تلخّصت مهمتهم في حماية الشارع الذي يعتبر مدخلاً للحي والفاصل بين حيّ السلم وكلية العلوم.

كان سعيد يقف مع رفيق له يدعى حسين الشيخ خلف ساتر تراب ـي تعرض للقصف، وسقطت عليه قذيفة.

شظايا أصابت حسين في ساعده الأيمن، مما جعله ين ـزف بغزارة. يحمله سعيد وينقله إلى مكان آخر قريب، ومن ثم يعود إلى موقعه. كانت المنطقة تتعرض للمزيد من القصف العنيف وقد استمر خمس ساعات.. بدأت بعدها الدبابات الصهيونية التقدم باتجاه "حي السلم".

في هذه الأثناء يكلّف المقدم علي قاسم سعيداً مع رفيق له بمواجهة دبابة "إسرائيلية" والقضاء عليها بعد أن تمكنت من دخول الشارع المؤدي إلى الحيّ.

كان سعيد ورفيقه في طريقهما لضرب الدبابة وإذ بهما يفاجآن بتمركز بعض الجنود "الإسرائيليين" في إحدى البنايات المجاورة، أحد الجنود كان على السطح، والآخرون في الطابق الثالث من البناية المؤلفة من أربعة طوابق.

سعيد ورفيقه يدرسان خطة للقضاء على الجنود ويقرران ما يلي:

يصعد سعيد إلى بناية مجاورة من أجل التعامل مع الجندي الصهيوني على السطح بواسطة بندقية الكلاشينكوف، في الوقت نفسه يقوم رفيقه برماية قذيفة ب ـي. سفن على الجنود الآخرين.

تمت الخطة بنجاح، عادا إلى موقعهما الأول دون القضاء على الدبابة. في الأثناء تتمكن بعض الدبابات الأخرى من عبور الشارع.

قذيفة قريبة تنفجر بالقرب من سعيد، يصاب على أثرها في ساقه اليسرى. يزحف إلى الوراء، ينقذه رفاقه، يجرون له الإسعافات الأولية وينقل إلى مستشفى حارة حريك الميداني، ومن ثم إلى مستشفى طراد لإتمام علاجه.

علي سيف الدين

العمر 18 سنة.

من مقاتلي حركة أمل، انضم إلى صفوفها عام 1979. يسكن منطقة الرويس قرب مخيم برج البراجنة. شارك في مواجهة محاولة الإن ـزال "الإسرائيلي" الأول على منطقة خلدة، حيث تمكن المقاتلون من إفشاله وكبدوا الغزاة خسائر فادحة في الأرواح والمعدات. يومها أصيب علي برصاصة في ساقه اليسرى.. نُقل على أثرها إلى مستشفى حارة حريك حيث بقي مدة ثلاثة أسابيع.

خرج علي بعد شفائه، مرة أخرى يعود للقتال، لكن هذه المرة في منطقة "الليلكي" في الضاحية الجنوبية لبيروت. شارك علي وبفعالية في القتال الذي جرى هناك.

في أحد أيام القصف، وبينما ينتقل مع رفاقه في سيارة باتجاه منطقة الرويس،

فجأة تتعطل السيارة. البوارج تطلق قذائفها على كل مكان ومنطقة الرويس تحديداً. تسقط قذيفة على بناية مجاورة منهم.. يُصدر المسؤول أمراً بالانبطاح أرضاً. قذيفة أخرى سقطت على بعد عشرة أمتار تقريباً من المجموعة.. استشهد مقاتلان، أحدهم كان المسؤول. وأصيب علي في ساقيه، بُترت الساقان مباشرة. ينقل علي إلى مستشفى حارة حريك ومن ثم إلى مستشفى اللاهوت.

فاطمة ضرغام

عمرها 24 سنة.

تسكن منطقة برج البراجنة، مخطوبة منذ حوالي السنة، تعمل مدرّسة في منطقة "الشياح". تسكن في الطابق الأول من بناية مؤلفة من طابقين وتبعد عن المخيم حوالي خمسين متراً.

في أحد الأيام، ونتيجة لعنف القصف المركّز على منطقة البرج والمخيم، تقرر فاطمة الانتقال إلى بيت شقيقتها المجاور لبيتها.. والذي يتميز بأنه يقع في الطابق الثاني من بناية تتألف من خمسة طوابق. فاطمة موجودة في غرفة نوم شقيقتها، اشتدّ القصف، تخشى الإصابة، تهرع للن-زول إلى أسفل، تمشي بسرعة، تشعر بعدها باهتزاز البناية.

قذيفة فوسفورية تسقط في غرفة الطعام المواجهة للممر، حريق هائل يشتعل في الغرفة المجاورة.. وصل النار إلى جسد فاطمة التي لم تستطع الخروج. يختلط اللهب والدخان والحجارة والخوف ورائحة الفوسفور مع رائحة اللحم المحروق. كان أول ما فكرت به فاطمة هو احتمال إصابتها في العينين. تفتحهما فإذا ببصيص من النور يمتد أمامها. أخذت تتحسس أجزاء جسدها في محاولة للتأكد من عدم وجود إصابات.. كومة رماد تتفتت بين يديها، أدركت بعدها أن قميصها قد احترق. أبوها كان موجوداً في الغرفة المجاورة، تصرخ "والدي.. إنني أحترق.. إنني أحترق!!" "ويجيب الوالد: "أخرجي.. أخرجي يا فاطمة".. هو لم يستطع مساعدتها لأنه كان أيضاً مصاباً.

ما أقسى هذه اللحظات.. عندما يفقد الأب قدرته على مساعدة ابنه أو ابنته وهو يرى فلذة كبده يحترق.. ولا يستطيع أن يقدم شيئاً.. إنها لحظات.. يختلط فيها الأمل بكل قدسيته مع آلام أعظم قدسيّة، إنها الحرب.

تستمر فاطمة في الصراخ.. تسأل عن أخيها. في نفس اللحظة يدخل الأخ.. يتناول روباً يلفه على جسدها المحترق، يحملها، ين-زل إلى الأسفل، يضعها في الطابق الأرضي عند الجيران بانتظار السيارة.

فاطمة تئنّ أنيناً موجعاً وتطلب مرآة، لترى ما حل بها.

ما أفظع المنظر... بالنسبة إليها، تشوهات كبيرة في الوجه، في اليدين.. والساقين، إنها غريزة المرأة دائماً.. في كل اللحظات.. أصعبها.. تحاول الاطمئنان على شكلها.. خاصّة على الوجه.

حتى الجيران.. لم يعرفوها إلا من صوتها.

نُقلت إلى المستشفى في حارة حريك حيث أجريت لها الإسعافات اللازمة.

فاطمة حائرة بين التشوهات الجسدية، والآلام الكبيرة الناتجة عن الحروق.. والسؤال المهم كيف ستواجه خطيبها.. كم تمنّت ألا يأتي... كي لا يراها وهي في تلك الصورة، لكنّه أتى... لم يعرفها... نادت عليه منذ أطل بباب الغرفة... كي يعرفها. فاطمة لا تتحمل.. أن لا يعرفها خطيبها.

عندما رآها على تلك الصورة بكت وإياه.. سألته: "لماذا أتيت؟ وكيف عرفت؟". خرج دون أن ينبس بكلمة. نادت أخاها كي تطمئنّ على والدها وجيرانها. ويبقى الخطيب في المستشفى، دون دخول الغرفة التي ترقد فيها خطيبته المحروقة.

عندما دخل الغرفة في المرة الثانية، كانت فاطمة تقرأ في عينيه.. كل العطف والحب والحنان والإصرار على مواجهة الحياة معاً، بكل آلامها وصعابها، وكل التشوهات التي خلّفتها قذائف الفوسفور الصهيونية على ذلك الجسد البريء.

أسئلة كانت تدور في ذهن فاطمة، أبرزها عن مصير ارتباطها بخطيبها، تحاور أخاها، تستفسر منه عن إصابتها.. وهل ستبقى هكذا؟..

عوامل كبيرة تتنازعها.. التشوّهات التي خلفتها الحروق وحبّ الحياة، حياة زوجية هانئة مع خطيبها، وإنجاب الأطفال، وأفكار أخرى كثيرة.. ضغط نفسي كبير تواجهه فاطمة، خطيبها يتواجد في المستشفى طيلة اليوم.. في معظم ساعات النهار والليل.. يعطيها الأمل بالحياة ويشحنها بالتفاؤل الذي يساعدها على التغلب على آثار الحروق.

أرى فاطمة في المستشفى بعد أربعين يوماً من إصابتها. كان إحساسها بالحياة يتعمّق يوماً بعد يوم، خاصة أنها وخطيبها يُرتبان أمورهما للزواج بعد خروجها من المستشفى.

جيفارا الجزائري

العمر 19 سنة.

من مواليد مدينة الجزائر.

ذهبتُ لرؤية "جيفارا" لأسمع منه قصة إصابته. أحييه بإشارة مني وبكلمات التحية العادية، يرد عليّ بابتسامة عريضة.

أبدأ في توجيه الأسئلة إليه. جيفارا... لا يرد... أفاجأ... إنه أصم.. يُسعفني الممرض عبد الهادي الموجود بالصدفة بالقرب منه.. يختصر، يلخص حالته بكلمات:

لقد أصبح أصمّاً... أسأله عن السبب؟

يقول عبد الهادي:

جيفارا ضرب ثماني عشرة قذيفة "ب-ي. سفن" خلال ست ساعات وبعد ذلك مباشرة، سقطت بالقرب منه قذيفة من مدفع صهيوني عيار 155 ملم، فسبّبت له الصمم.

أكتب أسئلتي لجيفارا، ينظر إليها، يرفض ذكر اسمه الحقيقي، ويصرّ على ذكر الاسم الحركي فقط. فيكتب الاسم وتاريخ ميلاده.

ارتبط بالثورة عام 1978 وبالضبط في 17 تموز أثناء دراسته الثانوية، عندما تعرّف على مناضلين فلسطينيين كانوا يدرسون هناك. من هذه النقطة بالذات

تعمّقت قناعاته الثورية التي امتدت جذورها إلى ثورة المليون ونصف المليون شهيد.. الثورة الجزائرية..

شعوبنا العربية، لها نفس الإحساس والقناعات بكل قضاياها. بكل ما يواجهها، حتى لو حاولت أنظمة التخاذل والقهر في وطننا العرب‌ـي أن تفصل بين جماهيرنا العربية في هذا البلد العرب‌ـي أو ذاك.

في عام 1979 يحمل جيفارا حقائبه ويستعد للسفر إلى لبنان.. إيماناً بالثورة وبقناعاته التي تأصّلت. كان موقعه في جنوب لبنان، وتحديداً في مدينة صور.

جيفارا لا يشعر بالغربة في المدينة الهادئة والصغيرة، هذه المدينة التي يشعر فيها الإنسان بدفء أهلها وحبّهم لأي قادم جديد.. يتأقلم جيفارا مع صور، وأهلها سريعاً، مثلما هو التماهي مع بيارات البرتقال وكروم العنب في الجزائر، ويزداد حبّه لرفاقه وموقعه، يتعمّق التحدي في نفسه تماماً مثلما هو الإصرار.

في بداية المعارك الأخيرة تصّدى مع رفاقه لمحاولات إن‌ـزال صهيونية في منطقة "رأس العين" بالقرب من مخيم "الرشيدية" وكذلك في منطقة مخيم "البص" على مدخل مدينة صور.

تحاول قوات الغزو قطع خطوط الإمداد عن الموقع الذي يتواجد فيه ورفاقه، ويأتي الأمر إليهم بالانسحاب إلى موقع آخر.

الاشتباكات مع العدو ومشاغلته تمتدّ لأكثر من أسبوع.. وهنا يقررّ المسؤول فرز الشباب إلى مجموعات صغيرة مقاتلة تتخذ شكل حرب العصابات، وتبدأ في ضرب العدو في كل مواقع تواجده.

في أحد المرات، عندما كانت هناك محاولة إن‌ـزال "إسرائيلية" على منطقة الصرفند، تصدّت المجموعة بكل بسالة للمحاولة، يترك العدو ثلاث من دباباته السبع المهاجمة، ولم يستطع سحبها. تُهاجم مجموعة جيفارا الدبابات، تأخذ تموينها ومن ثم تقوم بتفجيرها. بعد رحلة شاقة وطويلة يأتي إلى بيروت مشياً على الأقدام.

في المدينة المحاصرة، يُكلّف بقيادة مجموعة مهمتها التصدّي للغزاة في منطقة "الليلكي".

تأخذ المجموعة المؤلفة من خمسة رفاق موقعها في المنطقة، وتتصدى لمحاولات تقدّم العدو. القوة الغازية المتقدمة كانت مؤلفة من سرية دبابات (عددها تسعة) وسريّة مشاة تتجاوز المائة جندي صهيوني، ذلك بعد أن مهدّ العدو لتقدمه بقصف عنيف ومركز على لمنطقة امتدّ لساعات طويلة.

كان واضحاً عدم التكافؤ في القوى المتقابلة. جيفارا ورفاقه يقررون الانسحاب. يستشيرون القائد عبر جهاز اللاسلكي، يأتي جوابه واضحاً ومحدداً وصريحاً: "إثبتوا في مواقعكم، واجعلوا الغزاة الصهاينة يرون ويحسّون صلابة القوات المشتركة، لا تدعوهم يمرون إلا على جثثكم".

وهنا ترتفع معنويات المجموعة، ويصمم الجميع على التصدي. الأعداء لا يرون سلاحنا الحقيقي وهو الأهم والأعظم من كل الأسلحة العصرية. إنه سلاح الإرادة.. والإيمان بالثورة.. والنصر.

في بداية الاشتباك مع العدو كانت رهبة جيفارا ورفاقه كبيرة من مواجهة الموقف. دقائق مرّت ومن ثم تتحول الرهبة إلى شجاعة يصعب وصفها بالكلمات، نسي كل مقاتل من المجموعة ما حوله، تجسّدت الحياة في نظره بشيء واحد.. هو منع العدو من التقدّم، مع إيقاع أكبر عدد من الخسائر في صفوفه.

تقترب الدبابات، وهنا يتنافس الرفاق على اصطيادها، يحسم جيفارا قائد المجموعة ذلك ويقوم بتوزيع مهمة ضرب الدبابات على أفرادها.. وتستمر المعركة ست ساعات، لم يستطع العدو خلالها التقدم، وقد خسر سبع دبابات وناقلتي جنود (إذاعة العدو اعترفت بمقتل ثلاثة من جنودها) ونحن نعرف بالطبع "صدق" العدو الصهيوني في بلاغاته العسكرية!.

استعملت مجموعة جيفارا البن-زين في المعركة، كانت تضعه في القذائف، وتطلقها على الحرش حيث تتواجد القوات المعادية، تبدأ الأشجار بالاحتراق.. ويبدأ صراخ العدو ويعلو.. يعلو.. ويعلو.. خسائر المجموعة كانت استشهاد أحد أفرادها بعد نفاذ ذخيرته كلها، وجرح اثنين.. من ضمنهم جيفارا.

وكما ذكرتُ في البداية، جيفارا أطلق ثماني عشرة قذيفة ب-ي. سفن من بين سبع وخمسين قذيفة أطلقتها المجموعة.

قذيفة معادية تسقط بالقرب منه، يبدأ الدم بالن-زف من أذنيه وفمه، ويصاب بالصمم، رغم ذلك يستمر جيفارا، ولمدة أربع ساعات أخرى في القتال. أما عن كيفية استعماله لجهاز اللاسلكي بين يديه، فقد اعتمد على حاسة اللمس، كان يعرفُ أن الجهاز يشتغل نتيجة اهتزازات فيه.

جيفارا يرسل التقارير.. ولا يستقبلها.. تأتي مجموعة أخرى تحلّ محل الأولى وينقل المصابون إلى المستشفى.

مجموعة جيفارا حازت على وسام "بطولة القوات المشتركة" واستلمته من يدي الأخ القائد العام أبو عمار.

عيسى خالد مرعي

طفل في الحادية عشر من عمره.

يسكن في صبرا.

مع بداية المعارك هاجر مع عائلته، التي تتكون من سبعة أبناء إضافة للأم والأب، إلى منطقة الروشة.

الأب، كان يعمل في معمل لحجارة الطوب.

تضطّر العائلة لمعايشة الواقع الجديد في ظل حصار العصر.. حصار القرن العشرين.. للمدينة الباسلة... البطلة... بيروت.

في أحد الأيام، وأثناء اللعب يتناول "علي" (الشقيق الأصغر لعيسى) جسماً صلبا من على قارعة الطريق ليلعب به.

أطفالنا يفتقدون أشياء كثيرة في طفولتهم والتي من المفروض أن يعيشونها بكل حلاوتها وبراءتها ورقّتها.

همجية القرن العشرين.. حرمتهم من الألعاب، التي تتطور يوماً بعد يوم، ولكن

حتى الألعاب البسيطة والبدائية.. يفتقدها أطفال بلادي. إنها حضارة الصهاينة.. إنه التقدّم والتطور في التقنية العسكرية الأمريكية، تُقدّم إلى أطفالنا هداياها على شكل قنابل انشطارية وأخرى عنقودية، منثارية وفوسفورية.

علي يلتقط الجسم الصلب، لقد تعوّد التمرين على كرة القدم بعلب السردين الفارغة في صبرا.. تعوّد أن يصنع من الأسلاك سيارته. ضيق ذات اليد لدى والده حرمه الكثير.

عيسى يرى أخاه يلهو بالجسم الصلب، ويدرك أن هذا الجسم بيد أخيه لا بد وأن يكون قنبلة...

صرخ على شقيقه الأصغر "علي"، بكل الحنوّ الذي تختلط فيه الطفولة والإدراك الواعي والحنان الكبير من عيسى لأخيه الأصغر.. طلب منه قذف الجسم الصلب... القنبلة. علي يرفض النداء.

يصرّ عيسى على تخليص القنبلة من بين يدي شقيقه، يقترب منه يمدّ يده ويأخذها، يرميها بعيداً في الهواء، فتنفجر على بعد أمتار قليلة من الشقيقين.

عيسى يشعر بالدوار، يقع على الأرض. يصاب في ساقيه. علي يصاب في فخذه الأيمن. يهرع عدد من المقاتلين المتواجدين قريباً من البيت لمساعدة العائلة في لملمة جراح الشقيقين.

أحمد موعد

العمر 17 عاماً.

يسكن في مخيم اليرموك الفلسطيني بالقرب من دمشق. التحق بالثورة منذ عام 1978.

مع بداية الحرب تحددّ موقعه في الدامور.. كان يعمل على قاذفه صواريخ "سام 7".

ارتبط أحمد بالدامور.. بالناس.. بالأزقة.. بكل الأطفال.. وبكل الأشياء، بالأشجار، بالرفاق في الموقع.. و.. بقاذفة الصواريخ.

تبتدئ المعارك. في يوم السبت 5/6/82 يقصف الطيران الصهيوني منطقة الدوحة، ويمتد القصف إلى منطقة السعديات.

قاذفة الصواريخ التي يعمل عليها أحمد تتعامل مع طائرات العدو بكل العنف.. والحقد الثوري يطلقُ "السام 7" على الأعداء.

في اليوم الأول يستطيع أحمد ورفاقه إسقاط طائرتين "إسرائيليتين" من نوع "ف - 15" كان ذلك على مرأى من الناس في المنطقة.

في اليوم الثاني.. يعاود طيران العدو قصفه... باحثاً عن مدافع قاذفات الصواريخ، موقع أحمد يتمكن من إسقاط طائرة وإحراق أخرى... كل من في الدامور كان يرى الطائرات الإسرائيلية من نوع "هليكوبتر" وهي تحاول التقاط الطيارين من البحر. البوارج الصهيونية تشارك هي الأخرى في القصف.

تستمر الاشتباكات مدة ستة أيام متتالية، تمكّن فيها الموقع أحمد ورفاقه من منع الطيران الصهيوني من تحقيق أهدافه.

بعد ذلك ينتقل إلى منطقة الناعمة المجاورة للدامور.. هناك يشارك مع الرفاق في التصدي لمحاولة إن-زال بري إسرائيلي.

صبيحة اليوم التالي يعاود الطيران قصفه باحثاً عن الرّماة، ويتمكن من اكتشاف الموقع.

بعد أن أطلق أحمد الصاروخ الأول، ما كاد يطلبُ صاروخاً آخر من رفيقه... حتى قامت طائرة الحماية، تلك الطائرة اللعينة بقصف الموقع، وتتمكن من إصابته إصابة مباشرة. يستشهد مقاتلان ويصاب أحمد إصابات بليغة في يده وساقه أدت إلى بترهما.

سيارات الإسعاف تتجه إلى الموقع وتنقل الشهيدين، والجريح أحمد إلى المستشفى.

أكرم توفيق الخطيب

طفل في التاسعة من عمره.

مصاب بحروق في منطقة الأذن والرقبة والساعد الأيمن.

شقيقته أمل.. طفلة في السادسة من عمرها. مصابة بحروق في يديها ورقبتها وكتفها الأيسر.

شقيقته لمى... طفلة في العاشرة من عمرها، مصابة بحروق في يديها.

سلام رجب الفقير.. طفلة في السادسة من العمر. مصابة بحروق في فخذيها ويديها.

أربعة أطفال التقيتُ بهم في حديقة مستشفى "المدرسة الفرنسية"، يلعبون.. رغم جراحهم والتشوّهات الكبيرة في أجسادهم، يمرحون.. ولكن بحدود الحالة الصحية التي تسمح بها إصاباتهم. يلعبون لدقائق.. في مكان محدد، ومن ثم يجلسون على أريكة خضراء في الحديقة بالقرب من غرفة نومهم في المستشفى.

بالكاد أحاول جمعهم، لأسألهم. ولكن من الصعب أن تجمع أربعة أطفال من حولك، خاصة إذا كنت طبيباً، فالأمهات، عادة يُخفن أطفالهن بالأطباء، بإبرهم وأدويتهم وأشيائهم.. فيضعون حاجزاً بين الأطفال والطبيب.

ولكنني تمكنت في النهاية من جمع اثنين منهم، هما أكرم الخطيب، وسلام الفقير. وكان ذلك بمساعدة إحدى الممرضات. أداعبهما... محاولاً كسر الحاجز الفاصل بيننا. انجح لحدّ ما في إزالته، وفقط لدقائق قليلة!.

حاولت الاستفسار منهما عن الطريقة التي أصيبا بها. بكل براءة الأطفال أجابا..

يقول الطفل أكرم:

"نحن نسكن في منطقة الرويس. في ذلك اليوم الأسود، صحونا على أصوات الطائرات وهي تقصف بيروت. ركضنا إلى الملجأ، أنا وأخوتي وعمي وعائلته، أب-ي بقي في المن-زل لأنه كان مريضاً بالربو، ولا يستطيع أن يتحمل أجواء الملجأ. كنا نرتعد من الخوف، كان القصف قريباً وعنيفاً واستمر لساعات طويلة. ما أطول ذلك اليوم". يتابع أكرم:

"عند الظهر، سقط أول صاروخ على باب الملجأ، وبسرعة اتجهنا نحو الجهة

الأخرى منه، وما هي إلا لحظات حتى انفجر صاروخ آخر، على ما يبدو أنه أصاب البناية، لأنني شعرت أن السقف يهبط علينا. كل ما استطعت أن أراه.. النار وهي تشتعل.. كنت أصرخ.. أتألم.. أحترق.. كل الناس كانوا يحترقون. حاول بعض الناس إطفاء الحريق، لكنهم لم يستطيعوا. رأيت ابن عمي حسان يحترق.. ويموت أمامي.. كان المنظر بشعاً إلى حدّ كبير.. خفت كثيراً.. ثم، صاروخ آخر انفجر.. بعدها لم أدرك شيئاً. صحوتُ وإذ أنا في المستشفى".

الطفلة سلام رجب الفقير

ذلك اليوم كانت الطائرات "الإسرائيلية" تقصف بعنف. المدنيين.. العسكريين.. البنايات.. الملاجئ.. وكل شيء. من بين ما استهدفته الطائرات، ملجأ إحدى البنايات في منطقة الرويس.

ولأسبوع مضى قبل ذلك اليوم المشؤوم، كانت عائلة الطفلة سلام تقضي معظم ساعات النهار والليل في الملجأ لأن القصف البري والبحري والجوي استهدف المنطقة.

في ذلك اليوم الدامي كانت سلام تجلس بالقرب من والدتها مع أخوتها وتلتصق بأمها. أرادت الأم أن تحمي أطفالها بجسدها خوفاً من إصابتهم بالشظايا، إنها الأمومة بكل أحاسيسها.

كان الناس في الملجأ ينتظرون المجهول.. وتوقّف الغارات. تمرّ الثانية.. كأنها دهراً.. القادمون إلى الملجأ في تزايد مستمر، حالة رعب تسيطر على الجميع. ساعة تمضي، وأخرى، وثالثة ستأتي.. رغم مضيّ الساعات الطويلة.. الجوّ ممطر.. غبار، ودخان القذائف يمرآن جوّ الملجأ، الشمس تلبس جلالاً أسود، والسماء تبدو مظلمة في وضح النهار.

في ذلك النهار لم تستطع سلام اللعب (في الملجأ) مع أخوتها وأبناء الجيران. كان الأطفال خائفين. الرعب منعهم من القيام بأية حركة. كان الأطفال خائفين. حتى أنفاسهم.. حبسوها.. كي لا تشعر الطائرات بوجودهم.

يزداد القصف. يسقطُ صاروخ على باب الملجأ. شظايا كثيرة تتطاير. وتستقر في أجساد البشر.. نيران تشتعل.. غبار كثيف. أصبح الجوّ خانقاً إلى درجة كبيرة. ويا لهول ما رأته سلام.. لحم بشري ملقى على الأرض. بقع دماء متناثرة في كل الأمكنة، صرخات من هنا، آهات وأنين من هناك.

كثيرون ماتوا.. آخرون أصيبوا بجراح وبحروق بالغة، من بينهم سلام التي أصيبت في فخذيها وفي يديها.

عندما سألتها عن كيفية إصابتها، أجابت: "جاءت القذيفة في قلب الملجأ، كنا كلنا فيه، بعدين إيمان تصاوبت..".

إسماعيل تصاوب..

ماما.. تصاوبت..

بابا.. تصاوب..

كلنا.. تصاوبنا".

سألتها: "عندما تكبرين.. ماذا ستفعلين؟".
أجابت: "سأدرس لأكون دكتورة".
- من أين جاءت الصواريخ التي انفجرت في الملجأ؟
- من الإسرائيليين.
- ولماذا ضربنا الإسرائيليون؟
...
- وماذا ستفعلين بهم؟
- سأضربهم مثلما ضربونا.
وتضيف الممرضة المسؤولة عن غرفة الأطفال: "والدة سلام، أبوها، وأخوها استشهدوا فيما بعد، بالأمس أخبرتني جدّتها، وأوصتني أن لا أقول لسلام شيئاً. ستعرف فيما بعد".

أنور توفيق

العمر 25 عاماً.
مقاتل فلسطيني، التحق بالثورة منذ عام 1979. يسكن في مخيم اليرموك. كان موقعه في "الغراز" قرب برج البراجنة.
مع بداية الاجتياح الصهيوني للبنان، انتشرت مجموعته انتشاراً قتالياً في منطقة "الأوزاعي" وكُلّفت بالدفاع عنها.
أنور يقاتل على رشاش مضاد للطائرات، ينسّق مع رفاقه الآخرين الذين يضربون على المضادات من أجل تشكيل "شبكة" مضادة للطيران.
عندما وصل "الإسرائيليون" الغزاة إلى مشارف خلدة، ونتيجة للوضع القتالي الجديد، كُلّف أنور بمهمة جديدة، إسناد الدوريات والمجموعات المهاجمة. هذا لا يعني أن مهمة الرشاش قد ألغيت. كان أنور يمارس مهامه المتعددة بكل نشاط.
يحاول العدو التقدم إلى المطار لاحتلاله مستغلاً وقف إطلاق النار المتفق عليه. في هذه الأثناء كان أنور مع سبعة عشر رفيقا يكمنون في المدرّجين الشرقي والغرب-ي للمطار.
قبل اجتياح المطار بيومين تقريباً، تُغير الطائرات مدة ساعتين ونصف على المواقع المتمركزة للقوات المشتركة في المنطقة. يُصاب على أثرها أربعة مقاتلين، ويستشهد ثلاثة، بينهم قائد إحدى المجموعتين المتواجدتين.
وتبدأ المحاولات "الإسرائيلية" لاحتلال المطار.
آذان المقاتلين تسمع هدير الدبابات وهي تتقدم مستغلّة الظلام، يبتدئ قصف البوارج للمنطقة. الجميع يعانق السلاح بحنوّ وعطف بالغين، يحملون أقسى ما يستطيعون من الذخائر وينتشرون في الحفر المعدّة سلفاً.
وسط ظلام الليل، الخالي من ضوء القمر، ضجيج مزعج، مرهق لآذان وأعصاب المقاتلين، يختلط بأصوات أكثر إزعاجاً. وهي الصادرة عن مكبرات الصوت "الإسرائيلية" التي تحثّ المقاتلين على الاستسلام.
يسرحُ أنور مع ذاكرته.. ترجع بعيداً إلى أيام طفولته وحرمانه في مخيم

اليرموك. أبواه حدّثاه كثيرا عن بلدته "بلد الشيخ" بالقرب من حيفا.. لطالما عاشا من أجل العودة.. ولطالما حلما بها.. قريته تتجسد الآن في سلاحه، "بالكلاشن" و"الب-ي. سفن"، وكل الطلقات التي يحملها سيعملُ على تحريرها. يداه تقبضان على الحقيقة وتلتصقان بالأخمص الحديدي بكل قوة.

تقترب الدبابات رويداً.. رويداً.. يحبسُ أنور أنفاسه، يودّ ألا يسمعها أحد. يزداد هدير الدبابات.. يضرب قذيفته الأولى على آلية متقدمة.. وكانت على بعد ثلاثمائة متر تقريباً. تُصاب إصابة مباشرة. تتوقف الدبابات.

تتوالى قذائف المقاتلين على الدبابات التي تقصف هي الأخرى مواقعهم بكل جبروتها. استمرت المعركة ثلاث ساعات. بدأت خيوط الفجر تشق طريقها.. تمحو الظلام. أخذ النهار يصحو تدريجياً. الفجر مثل مقاتلينا يصرّ هو الآخر على تبديد العتمة. تعاود الطائرات المعادية غاراتها، فتضج عصافير الفجر من أزيزها وقد حرمها الزقزقة والتحليق علوّاً لاستقبال الفجر.. حتى السنونو أدرك جرائمهم.. فهو منذ بداية الاجتياح.. هاجر بعيداً.. خفافيش الليل كانت وحدها تنسجم مع الطائرات الصهيونية.

تتناقص الذخيرة لدى المقاتلين. في الأثناء يتقدّم العدو على محورين: الأول باتجاه" حيّ السُلّم"، والثاني باتجاه تلة الكوكودي ويتمركز فيهما. من هذين الموقعين يُشدّد قصفه على مواقع القوات المشتركة.

وتنشب معركة أخرى يستعمل فيها العدو كل أسلحته البرية والبحرية والجوية. تستمر حتى الخامسة مساء حين أعلن وقف آخر لإطلاق النار.

أنور يشعر أن هذا اليوم كان أطول يوم في حياته. هي أول معركة يشترك فيها ويقاتل بشكل مباشر ضد "الإسرائيليين". لقد رأى بأم عينيه.. دباباتهم.. وهي تحترق. أثناء المعركة، استشهد أحد الرفاق المقاتلين، أما خسائر العدو فكانت بالغة وكبيرة.

أخذت مجموعات المقاتلين تنظّم هجمات ليلية خلف خطوط العدو. وفي النهار كانت تتمركز في مواقعها.

ظهر أحد الأيام، وبينما أنور يقف بالقرب من السيارة التي تحمل الرشاش، فجأة، تسقط قذيفة عشوائية بالقرب من السيارة، فيصاب بشكل بالغ في أنحاء متفرّقة من جسمه... في عينه اليمنى، يده اليسرى ورأسه. ينقله الرفاق إلى مستشفى "حارة حريك" ومن ثم إلى آخر في "المدرسة الفرنسية".

محمد فضل شهوان
"أبو الغضب"

أثناء استماعي لأنور توفيق، يأتي أحد الجرحى، قدمه اليمنى مبتورة، الشاش يغطي رأسه حتى الحاجبين، يحمل عكازيه، يضعهما جانباً، ويجلس بالقرب مني. لكن حرارة سماعي لأنور ألهتني عنه. يلتصق ب-ي.. يحاول قراءة كل كلمة أكتبها.

راعني أنه طفل.. قصير القامة.. يُشعل سيكارة وكأنه شيخ في السبعين. يدخّن وكأنه من أوائل من عاصروا اختراع السجائر.

أسأله عن اسمه. يبتسم... ولا يجيب.

في بداية زيارتي لمستشفى "المدرسة الفرنسية"، مررت على الدكتور جميل، مدير المستشفى لأعرف منه عن بعض الحالات. يشير عليّ بالمرور على الجريح "أب-ي الغضب" في الغرفة رقم "9".

في اليوم التالي، ذهبت إلى نفس الغرفة. سألت عن "أب-ي الغضب". أخبرتني الممرضة أنه خرج منذ ساعتين لزيارة أقاربه. شعرت بمرارة و.. بخيبة أمل.

عندما سمعت عن هذا الاسم، تصوّرت أن من يحمله رجلاً في الأربعين من عمره، مفتول العضلات، طويل القامة، ذا شاربين كثيفين، عيناه تبرقان. هذه هي الصورة التي استطاع خيالي رسمها لاسم "أب-ي الغضب".

عدت في اليوم التالي أفتّش عنه.. وجدته.. كانت المفاجأة.. أنه من تحدّت معه قبلا.. أبو الغضب هو نفس الجريح الطفل الذي رأيته قبل يومين عند حديثي مع أنور.

عرفته بنفسه. وعندما بدأت بتوجيه الأسئلة إليه.. حمل عكازيه وهرب. ناديت عليه لكنه لم يجب.

أبو الغضب، طفل.. هادئ القسمات.. جميل المحيا رغم آثار الحروق على وجهه، تحبّه من أول نظرة. باختصار تُفاجأ به.

يهربُ أبو الغضب بعيداً إلى الطابق الأول. يزداد شوقي للحديث معه.. يتضاعف.. ألحق به، أن-زل وأفتّش كل غرف الطابق.. اهتديت إليه. وجدته يضحك.. يقهقه. ضحكت بدوري.. قهقنا معا رغم استغراب الجرحى.. اعتقدونا مجنونين.

مرّت بخاطري طفولتي للحظات.. عندما كنا نلعب" التخباية". شددتُ على يديه وخرجنا سوية إلى حديقة المستشفى.

الاسم: محمد فضل شهوان "أبو الغضب".

عمره 15 سنة.

من سكان التبّانة في مدينة طرابلس. إلتحق بالثورة منذ خمس سنوات عندما كان في العاشرة من عمره.

هو أحد أفراد عائلة تتكون من سبعة أشخاص بالإضافة إلى الأب والأم. "أبو الغضب" أكبر الأولاد. والده يعمل دهّاناً. سألته: "لماذا انضممت للثورة في هذه السن المبكّرة؟ وتركت عائلتك؟".

أجاب: "أنا التحقت بالثورة، لأن انضمامي إليها يعني لي مزيداً من الارتباط بالعائلة وهكذا ترى: إنني لم أترك عائلتي".

أذهلني الجواب.

خمس سنوات ما قبل الحرب الأخيرة، تنقَّل محمد في مواقع مختلفة ومناطق متعددة، بين الشمال والجنوب والعاصمة وغيرها من المناطق.

كان أبو الغضب مزاجيّا في البقاء في المواقع، في بعضها يمكث طويلاً، وفي الآخر يبقى لأيام قليلة فقط.

مع ابتداء المعارك الأخيرة، تنقَّل في مواقع "المطار"، "الجولف"، "الأوزاعي" وغيرها. إلا أن القاسم المشترك الأعظم للمواقع التي يعشقها أبو الغضب هو: محاور التماس، لأنها بالنسبة إليه "الرئة التي يتنفس منها".

استقرّ به المطاف أخيراً في موقع بالقرب من المطار. إسأله قصّة إصابته... يجيب:

"يأتي الطيران الصهيوني في أحد الأيام و.. يخلعنا"... يقصد يقصفنا بعنف. (ونضحك سوية على هذا التعبير).

ينظر أبو الغضب حوله فيجد أن أحد رفاقه المقاتلين قد استشهد، وآخر مصاب، وهو نفسه قد أصيب في ساقه اليمنى ورأسه. تملّكته الحيرة، أراد إنقاذ الجريح، إصابته منعته من الحركة، وكذلك الطيران وقد عاود غاراته على الموقع. تتمكن سيارة الإسعاف من الوصول إلى موقعهم.. ويتم نقلهم جميعا إلى مستشفى حارة حريك.

سألته: "بماذا تفكر بعد الشفاء؟ ما هي خططك؟"

يجيب: "النصر أو الشهادة!".

ويستطرد: "أمنيتي أن أقف على سطح المسجد الأقصى في القدس وأصرخ.. يا عرب.. تعالوا انظروا.. لقد حرّرنا فلسطين..".

أبو الغضب يحقد على الأنظمة العربية.. لأنها لم تقدم للثورة أية مساعدة في حربها الأخيرة في مواجهتها للعدوان الصهيوني..

"ورغماً عن ذلك.. استطعنا الصمود..".

محمد علي عبد الرحمن

العمر 25 سنة.

سوري الجنسية، يعمل حدّاداً في منطقة "البسطة". إلتحق بالثورة منذ حوالي أربع سنوات، كان خلالها مقاتلاً في منطقة "الحرش" في بيروت. مع بداية معارك الحرب الأخيرة كُلّف بمهمة عسكرية، وانتقل إلى الدامور.

محمد كان مساعداً لرامي "ب-ي. سفن".

عندما وصلت قوات الغزو إلى مشارف الدامور، شارك محمد علي في التصدي لها مع سبعة رفاق، تمكّنت المجموعة من إفشال محاولات تقدّم العدو أكثر من مرّة.

في أحد المرات تمكنت الرفيق "جياب" من تدمير دبابة إسرائيلية، تراجع بعدها العدو.. بعد ساعتين تجري محاولة أخرى للتقدم.

مع اقتراب دبابات العدو منهم مسافة مئتي متر تقريباً... بدأت طائراته في الإغارة الوهمية على الموقع، لأن الإغارة الحقيقية تعني وصول صواريخ الطائرات الصهيونية إلى دبابات العدو نفسه وإلى جنوده، فالمسافة الفاصلة بين القوات

المشتركة والقوات الغازية آخذة في التضاؤل.
يحاول الطبيب أن يبعد عنه شبح الحقيقة، ولكن محمداً يدرك أنه.. لن يستطيع الرؤية بعد اليوم. "أتألم مثلك يا رفيق.. لأنني أعرف أنك لن ترى بعد اليوم".
محمد يصرّ على البقاء في الغرفة، لا يريد أن يصحبه أحد خارجها. يحاول أن يبدو طبيعياً.. ولكن.. يبدو ألمه واضحاً.. لكل من حوله.
لا يحب أن يطعمه أحد.. أو أن يسقيه.. يطالب بغرفة يجلس فيها وحيداً.. في هذه اللحظة تناول سيجارة، يحاول إشعالها.. يفشل.. يخبئها.. انتبه إليه.. أحاول إشعالها له، يرفض.. أبقى ساكتاً.. لا أود أن أثقل عليه.
"أتذكر تاريخ أبـي العلاء، أدبه، شعره، كبرياءه، وكلّ أشيائه.. أتألم.. لشدّة ما أعجبني شعر أبـي العلاء، ليس لكونه شعراً جيداً فحسب، بل بقدر ما هو شعره".
"فقدت البصر يا صديقي.. لكن ما أعظم ما تملك. إنه كنـز البصيرة.. مئات الناس يملكون عيوناً واسعة وكبيرة جداً، ولكنهم في حقيقتهم.. لا يُبصرون... أنت يا صديقي.. فقدت نور عينيك.. فقدت البصر.. لكنك ترى أكثر مما يرى كلّ المتخاذلين. ترى فلسطين.. بقعة.. بقعة.. ترى الرمل.. ترى أشجار قريتك.. وكل ساحلنا الفلسطيني المتوسطي الجميل.. ترى أزقة القدس. إنك ترى النصر ممزوجاً بلون عيون المقاتلين".

سعيد عباس

فلسطيني من مواليد سنة 1960منطقة حلب.
مقاتل في جيش التحرير الفلسطيني.
يمارس دوره النضالي دفاعاً عن الثورة في أحد المواقع في منطقة "الرملة البيضاء" في بيروت. مع بداية الحرب تنقّل سعيد في عدد من المواقع، منها "رأس النبع"، "سباق الخيل" وغيرهما.. كان يقاتل على راجمة صواريخ.
في أحد أيام المعارك، ركّز الطيران الصهيوني قصفه على منطقة "سباق الخيل" وبطبيعة الحال شاركته البوارج والمدافع أيضاً.
كان سعيد ورفاقه العاملين على الراجمة... يرمون صواريخهم، ثم ينقلونها حتى لا تكون هدفاً للقصف.
يحاول الطيران مطاردتهم مرات كثيرة، ويشدد من قصفهم في تواصل مستمر.. في ملاحقته المتكررة للموقع، يحاول افتراس من فيه، كالذئب.. يلاحق فريسته.
تستمر "اللعبة" مدة أربع ساعات. يتمكن بعدها الطيران من إصابة الموقع بصواريخه، يُهدم بيتان على الرفاق، فيصاب مقاتلان، تم إسعافهما، ومن ثم عاد الجميع بمن فيهم الجريحان (الملازم الشهابـي والمقاتل أبو صخر) إلى الموقع.. ويعاودون رمايتهم على الغالية.. راجمة الصواريخ.
في مساء نفس اليوم، الساعة السادسة يأتي أمر القيادة بوقف إطلاق النار، والرّد فقط في حالة إذا ما تعرض الموقع للقصف.
لكن الغدر الصهيوني.. هو نفسه.. الغدر الشايلوكي، إذ يواصل قصفه للمواقع

ما بين السادسة والنصف والسابعة والنصف خارقاً وقف إطلاق النار، يثصاب العريف محمود بجراح بالغة في ظهره.

في اليوم التالي، يتجّه سعيد في منتصف النهار إلى شارع "المتحف" لمساعدة الرفاق الذين يزرعون الألغام الأرضية في الشارع المذكور. أثناء سيره يتعرّض للقنص.. ينتبه لذلك.. ينبطح أرضاً، لقد أخطأته الرصاصات.

يأتي الطيران ويكتشف موقعه.

ما أعظم شعبنا.. وما أروع مقاتلينا.. قيادة أركان العدو الصهيوني تخصص الطائرات لملاحقة مقاتلينا.

ألم يقل بيغن في أحد تصريحاته إنه "على استعداد لقتل عشرة مواطنين لبنانيين وخمسة مدنيين فلسطينيين مقابل القضاء على مسلح فلسطيني واحد"!!.

العدو نفسه يعترف بعظمتنا.. بعطائنا الكبير واستعدادنا الأكبر للتضحية.

لا يزال سعيد منبطحاً على أرض الشارع.. وما زال رصاص القنص يلاحقه، الرفاق يقصفون مصادر نيران العدو في محاولة لتغطية انسحاب سعيد. ولكن حتى هذا لم يساعده على الانسحاب.

يرفع رأسه، يحاول الوقوف، لكن رصاصة تخترق كتفه الأيسر.. وتخرج من خاصرته اليمنى.

ناداه الرفاق، يحاول الرّد.. برفع رأسه فهو غير قادر على الكلام، لا يلبث رأسه أن ين-زل وفمه مملوء بالدم. فيسرع رفيق آخر "أحمد عبد الله" لإنقاذه، يتعرّض لرماية كثيفة، يصاب.. ويستشهد.

"يا لهذا الوفاء الفلسطيني الأصيل. يضحّي المقاتل بروحه.. من أجل إنقاذ رفيقه..."

ما تزال الراجمة ترمي المواقع "الإسرائيلية" بالصواريخ، وبشكل مركّز، في هذه الأثناء يأتي الملازم محمود لإنقاذ رفيقيه، يُصاب هو الآخر في يده اليسرى... فيأتي "محمد زغلول" مقاتل من قوات المرابطين.. لإنقاذ الثلاثة ولكنه يصاب أيضاً.

يعطي المقدّم "عطية" أمرا بتركيز القصف على المواقع المعادية، فيتمكن الرفاق وبسرعة مذهلة من سحب المصابين والشهيد ويتم نقلهم إلى مستشفى البربير.

ن-زف سعيد كثيراً، فقد وعيه. صحا بعد أربعة أيام في المستشفى. يعاوده فقدان الوعي ومن ثم يصحو بعد سبعة أيام.

في لحظاته هذه... سعيد يذكر والدته كثيراً وإخوانه وأخواته الذين لا يعرفون شيئاً عن حالته.. يتهدّج صوته عندما يذكر أمه، يحنّ إليها، إلى جلساتها وإلى دالية العنب في بيتهم في حلب، يحنّ إلى المدينة، إلى شوارعها وإلى كل زواياها، يحنّ إلى زوجته، وكان قد تزوج منذ سنة، وهو وزوجته ينتظران طفلهما الأول.

سيولد طفل فلسطيني آخر، وسيكبر، وسيصاب قادة الصهاينة بالغثيان.. "ألم تصرح غولدا مائير يوماً: بأنها تُصاب بالغصّة صباح كل يوم.. يولد فيه طفل فلسطيني؟"، سعيد يطوي أحزانه... يمسح كل الجراح.. ورغم كل شيء... ابتسامة ترتسم على قسمات وجهه.. إنه الأمل بلقاء أحبائه.. والإيمان بالثورة والانتصار..

هو ربما لا يدرك بعد... أنه أصبح مشلولاً.

محمد سليمان فرحات

العمر 31 سنة.

من مدينة صفد متزوج، عائلته تتكون من زوجته الحامل وثلاث بنات. يعمل خياطاً ويسكن في مخيم شاتيلا.

في أحد الأيام، وخلال تفقدي لجرحى مستشفى اللاهوت، وفي الطابق الثاني تحت الأرض، لمحتُ وجهاً لم يكن غريباً عليَّ. اقتربت منه، حييّته، ردّ علي بعينيه وبكلام لم أميّزه، فقد كان صوته خافتاً، وبالكاد يُسمع. أحاول أن أتذكر صاحب هذا الوجه وهو الشاحب شحوب الموت والمصفّركلون ليمونة!. لقد عرفته.. إنه محمد.. شددتُ على يده بحرارة. لقد كان مصاباً في بطنه. شظية مزّقت القولون وأخرى اخترقت جدار المثانة، شظايا كثيرة أصابت ساقه اليسرى.

أسأله: هل تتذكرني؟؟.

فيجيب: نعم، وينطق باسمي.

نتحدث معاً عن قصة إصابته، ونستذكر ليلة كنا فيها سوية أثناء حصار المدينة. في تلك الليلة كان عليَّ أن أناوب في المقرّ الحزب-ي الكائن بالقرب من الجامع المتواضع البناء - في مخيم شاتيلا.

بعد انتهاء دوامي في الثامنة مساءً، من مستشفى غزة، ذهبت إلى المقرّ. الطريق كان موحشاً وخالياً إلا من المقاتلين المتواجدين في مواقعهم، والقليل من الأهالي، الذين اضطرّ معظمهم للن-زوح من منازلهم بعد القصف المركّز والعنيف لمنطقتي صبرا وشاتيلا.

وصلتُ إلى المقر، رأيت محمداً ورفيقين آخرين، كانوا جميعهم يحرسون هناك. وكانت تلك هي المرة الأولى التي أعرفهم فيها.

جلسنا سوية، محمد وأنا ورفيق ثالث بينما الآخر في نوبة الحراسة، تحادثنا طويلاً استعرضنا قضايا كثيرة حول الوضع والمعركة الدائرة في بيروت.

كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة عندما ذهبنا للنوم. تبتدئ قذائف التنوير الصهيونية ويتحول ظلام شاتيلا إلى نهار. لم أستطع النوم، وكذلك باقي الرفاق.

يمضي الوقت متثاقلاً، في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وبالكاد كنت قد أغمضت عيني، حتى أفقنا كلنا على صوت غارة جوية إسرائيلية. توقّعنا أن تكون الإغارة على مكان قريب، ثوان مرت ندرك بعدها أنها غارة وهمية، فالطائرات اخترقت جدار الصوت، وأحدثت ضجيجاً عالياً إلى حد فظيع. اضطربنا وتوقعنا غارة أخرى حقيقية، فالغدر الصهيوني وارد في كل لحظة، هرعنا إلى الملجأ كإجراء احتياطي.

كان الجو فيه حاراً إلى درجة الاختناق. مقاتلون وسكان مدنيون كانوا قد سبقونا في الن-زول إليه، يتحاور الجميع، ويتفقون على أن هذه الغارات الليلية وقذائف التنوير ما هي إلا محاولة من العدو لإرهاق أعصاب الناس. خرجت

ومحمد.. لم نطق البقاء في ذلك الجوّ الخانق... وعدنا إلى المقر الحزبـي، أحضر محمد طعام "السحور" فقد كنا في أحد أيام رمضان، محمد يصوم الشهر بأكمله.

جلسنا، شاركناه أكل البطيخ والجبنة وبقايا خبز.

الجوّ الحار، البعوض، وحشرات أخرى، جراذين من الحجم الكبير كانت تزرع الغرفة ذهاباً وإياباً، ولا تنفع معها الأدوية، كل ذلك جعل النوم شيئاً مستحيلاً. أكوام الزبالة تغطي كل أزقة "صبرا" و"شاتيلا" وتسمّمُ الهواء. اقتربت نوبة حراسة محمد، وذهب الرفيقان الآخران للنوم في الجامع القريب، كونه أكثر أمناً فما زالت قذائف التنوير تغطي سماء المنطقة.

خرجت ومحمد، جلسنا في أحد زوايا الممر الفاصل بين الجامع والمقر الحزبـي، تحدثنا طويلاً.

يقترب موعد صلاة الصبح. يذهب محمد إلى إحدى غرف المقر. وأنوب عنه في الحراسة، يصلي ويقرأ القرآن بصوت عال.

شعور غريب تملكني ساعتها، كل خلية في جسمي استنفرت. أحببت قراءته للقرآن.. وسرحتُ بعيداً.. تذكّرت الموت.. والجنائز.. والشهداء.. و"الحياة الأخرى" وكل الذي تعلمناه في المدرسة من تعاليم الدين.

ها هي خيوط الفجر تبزغ... قذائف التنوير لم تعد في الجو. ذهبت إلى المقر. لم أستطع النوم.. مشيتُ في المخيم إلى أن جاء موعدي للذهاب إلى المستشفى.

هذه قصة معرفتي بمحمد، تذكرتها، بكل دقائقها وأنا أجلس بالقرب من سريره.

طلبتُ منه أن يحدثني عن إصابته، وبصعوبة بالغة يبدأ: كان ذلك يوم الأحد الدامي. الأول من آب، كنت مكلفاً بالحراسة أمام المقر الحزبـي، وكان القصف مركّزاً على المخيم ليلتها. تخترق إحدى القذائف الحائط المقابل للمقر، تنفجر قريبة مني، شظايا كثيرة اخترقت جسمي. أتطلع إلى بطني، فإذا قسم من أمعائي يتدلى للخارج، أصابني الغثيان، ولا أدري ماذا جرى لي بعدها.. اصحو، فإذا أنا في المستشفى، واسأل: "أين أنا"؟ أحد الممرضين أجابني: "أنت في مستشفى غزة".

علمت بعدها أنه قد أجريت لي عملية جراحية. بقيت في تلك المستشفى ثلاثة أيام نقلت بعدها إلى مركز "اللاهوت".

سألت محمداً: ألم تكن تخشى الموت أثناء تواجدك الدائم في شاتيلا لكثرة ما تعرض هذا المخيم للغارات والقذائف؟

ويجيب: حسمت مسألة الموت منذ زمن. ولذلك لم أكن خائفاً من القذائف.

أسأله: وبماذا تفكر الآن؟

يقول: أفكر ببناتي كأي أب.

- وما هي خططك.. بعد الشفاء؟

- سأحمل سلاحي مرة أخرى.. أقاتل، و"أصطاد عدوي".. بعد أن أصابني بقذائفه... أشعر أن لي ثأراً شخصياً، بالإضافة إلى الجرائم التي اقترفها هذا العدو بحق أبناء شعبـي.

- وهل ستخرج من لبنان؟

- وجودي في هذا البلد أعمق من جذور أشجارها، لا أقول أن لبنان وطني.. فلسطين هي وطني.. ولذلك.. لن أخرج من هنا إلا.. إلى فلسطين.

معين قدري حسن

العمر 25 عاماً.

من مدينة طولكرم.

يدرس الهندسة.. في أحد معاهد لينغراد.. المدينة الجميلة.. المدينة البطلة.. التي صمدت في وجه حصار النازيين.. لثلاث سنوات.

معين ينهي سنته الثالثة. ويلبـي نداء الواجب. يأتي عام 1980 إلى لبنان التزاماً بقرار التعبئة العامة الذي أقرته الثورة.

يعشق معين أرض الجنوب.. هواءه.. أشجاره.. ويصمم على العودة ليخدم سنة أخرى. في شهر أيار، وقبل ابتداء المعارك، يأتي إلى بيروت، يلتحق بمدرسة الكادر التابعة للجبهة الشعبية. وما أن يبدأ الاجتياح الصهيوني للبنان، حتى يتوزع الدارسون، ويكلّفون بمهمات قتالية مختلفة.

إن أحد أهم مميزات شعبنا هي حيويته المتواصلة دوماً.. وعطاؤه الكبير.

ينتقل الفلسطيني، من مقاعد الدراسة الأكاديمية إلى دراسة نظريه لواقع شعبه وثورته، كي يعمّق إدراكه لطبيعة ما يجابهه من تحديات. كل ذلك في إجازات الصيف التي يأخذها الطلاب عادة بعد سنة دراسية طويلة.

يلتحق معين بكتيبة الشهيد "أبو أمل" وتكلفّ مجموعته المؤلفة من عشرة مقاتلين بالذهاب إلى الدامور. في يوم 8/6/1982، وأثناء توجه المجموعة بسيارتين.. تقصف البوارج الصهيونية الطريق الرئيسي المؤدي إلى الدامور. قذيفة تصيب باص ركاب مدني كان متوقفا على بعد مئتي متر من سيارتي المجموعة. في الوقت نفسه كانت الطائرات تجدد غاراتها على الطريق.

تعود سيارتا المجموعة إلى مفرق خلدة وقد عاود الطيران قصفه. ينسحب المقاتلون إلى مخيم شاتيلا.

يهدأ القصف، تعود المجموعة إلى منطقة الدامور، لكن هذه المرة عبر طريق فرعي غير الطريق الرئيسي.. وما أن نـزلوا من السيارات حتى استأنف الطيران قصفه، وبسرعة انتشروا بين البيوت.

معين وأحد رفاقه "عبد الله" يختبئان في مكانين متجاورين، قذيفة تسقط بالقرب من موقعيهما، يصاب معين على أثرها بجراح بالغة في ساقيه. دماؤه أخذت تنـزف بغزارة، في الوقت نفسه كان يسمع صوت استغاثة رفيقه عبد الله من المكان المجاور. يتمنى مساعدته.. رفيقه، لكن الإصابته، تمنعه من الحركة.

تمضي الساعات طوالاً.. ثلاث ساعات.. تصورها كأنها.. خلالها كان عاتباً على الرفاق الآخرين في المجموعة، لأنهم لم يأتوا لإسعافه.

صور كثيرة دارت في ذهنه من ماضيه.. وحاضره.. وكيف سيتمكن من المشي في المستقبل وهل سينجو.. هل سيموت؟ وكيف سيكون وقع النبأ على والده الشيخ وعلى أمه المريضة؟

خفَّت حدة القصف.. ولكن لم يأت أحد. يبدأ معين بإطلاق الرصاص من بندقيته طلقة.. طلقة، حتى ينتبه الآخرون إلى وجوده.. يأتي من بقي غير مصاب من الرفاق إلى معين وعبد الله الذي كان فاقد الوعي، يتم إجراء الإسعافات الأولية لهما، ثم ينقلاً إلى مستشفى غزة. كان الوقت ليلاً. سيارات الإسعاف تنقل جرحى كثيرين إلى المستشفى. كل الأسرّة في غرفة الطوارئ مشغولة، الغرفة أشبه بخلية النحل. الأطباء يهرعون إلى الجرحى، الممرضون والممرضات يُجرون التحاليل اللازمة والسريعة للمصابين، يُجهّزون الأمصال وأكياس الدم والأدوية اللازمة. ينقلون هذا المريض إلى غرفة الأشعة... ويأخذون ذاك إلى غرفة العمليات. أما من استشهد، فينقل إلى غرفة التبريد. من بين الجرحى، لمحت "معيناً" الذي عرفته في الاتحاد السوفياتي.. في موسكو.. لم أكن أنا، ولا هو في حالة تسمح لنا بالحديث كان تعباً جداً، وكنت أنا مرهقاً. يُنقل معين إلى غرفة العمليات لإجراء عمليتين جراحيتين لساقيه.

في صبيحة اليوم التالي، مررت على غرفته في الطابق الثالث، هنأته بالسلامة. وتحدثنا. وسألته عن قصة أصابته فأخبرني كيف جرت.

سألته: وماذا يشغل بالك؟ الآن؟

يجيب بألم بالغ، ملامح وجهه كانت توحي بكل شيء: إن أكثر ما يؤلمني، أنني أصبت ولم أدخل في قتال مباشر مع العدو. كم كنت أتمنى لو أنني استطعت تدمير دبابة، أو قتل جندي صهيوني معتدي.

أسأله: وماذا تتمنى الآن يا معين؟

يجيبني: كل الذي أتمناه.. أن نعيش مثل باقي البشر، وأن يكون لنا وطن.. أن أتمكن من زيارة أهلي في الإجازة الصيفية.. مثل كل الطلبة الآخرين.

خديجة مرشد المقداد

العمر 60 سنة.

لبنانية من بعلبك.

نشأت في عائلة فقيرة، مما اضطرها وشقيقتها إلى الهجرة من مدينتهما إلى بيروت. سكنتا منطقة الرويس. استقرت الأختان في تخشيبة متواضعة على جانب إحدى البنايات. عملتا في البساتين من أجل تأمين لقمة العيش. كانت جريحة في مركز اللاهوت الطبـي. الحروق تغطي كتفها الأيمن، والساقين والرأس، هذا عدا عن الشظايا الكثيرة في أنحاء مختلفة من جسمها.

رأيتها ساهمة الطرف.. تفكر.. وتتذكر.

سألتها عن قصتها مع الحرب. وبحرقة بالغة أجابت: "كنا نعرف أن "الرويس" منطقة خطرة، فهي تقع على خطوط التماس مع العدو الذي كان يركز من قصفه اليومي عليها، ومع ذلك لم نهجر بيتنا، بسبب الفقر وعدم قدرتنا على الهرب إلى مكان آخر.

أثناء الغارات والقصف، كنا نهرع إلى الملجأ القريب الذي يقع في البناية المجاورة، إعتقدنا أنه آمن، وفي يوم الخميس الأسود، 12/8/82، ابتدأ الطيران

الصهيوني غاراته في السادسة صباحاً. كان يوماً مرعباً. ن-زلت وأختي ومعظم سكان البناية ومدنيون آخرون إلى الملجأ. كنا نحضّر الطعام للأطفال الذين بكوا كثيراً يومها من قلة الأكل.. والخوف. كنا في حصار، حيث منع العدو إدخال الغذاء والماء، وأصبح كل شيء شحيحاً ما عدا القذائف والصواريخ التي كانت تن-زل دون حساب. كان الجو في الملجأ حاراً وخانقاً. بقينا طويلاً على هذه الحالة، إلى ما بعد الظهر.

صلّى الكثيرون، ودعوا الله أن يحمي الملجأ. وألا يصاب أحد بأذى، إحدى النساء كفرت وكانت في السبعين من عمرها، كانت تقول "ن الله نسينا"... وأخرى أضافت: "ماذا فعلنا يا رب.. حتى تعاقبنا في الدنيا هكذا!!".

ويرد عليها أحدهم "وحّدي الله يا مرا!!".

يختلط ذلك بصراخ الأطفال وأصوات القذائف.

بعد الظهر.. قذيفة تخترق الملجأ وتنفجر بالقرب من الباب.. يشب حريق.. تتناثر الشظايا والحجارة. غضب إلهي ينصبّ على الملجأ.. أحسست أن البناية أطبقت علينا، كثيرون قتلوا وآخرون جرحوا واحترقوا.. غِبت عن الوعي، أفقت وهم يرفعونني من بين الأنقاض. جثث كثيرة كانت لأطفال ونساء وشيوخ ورجال وشباب مكوَّمة ومتناثرة أشلاؤها في الملجأ، وفي إحدى الزوايا تشتعل النار. أُنقل إلى المستشفى. وفي صباح اليوم التالي، علمت بوفاة أب-ي إسماعيل وزوجته، وأب-ي أحمد وعائلته، وهم جيراننا.

في المستشفى مات كذلك أربعة ممن جرحوا وهم من عائلة الخطيب: وفاء الخطيب 18 سنة، والدتها إقبال، شقيقتها وجدّتها.

مسكينة هذه العائلة، أصيب من أفرادها خمسة عشر شخصاً.

تستطرد خديجة: "أربعون آخرون ممن كانوا في الملجأ ماتوا أيضاً.. كما جرح ستون آخرون مصابون بحروق من جراء القنابل الفوسفورية".

أسأل خديجة: "من سبَّب هذه الحرب؟".

تجيب بعد تردد كبير: "يعلم الله!! يمكن الكتائب وإسرائيل!!".

ألحّ في السؤال: ولماذا تترددين في قول الحقيقة؟

تجيب: يا بني.. لا أعرف من سيحكمنا غداً.

أسرح في ذاكرتي إلى واقع تعامل حكوماتنا مع جماهيرنا العربية، هذه الجماهير التي تتعرض للإرهاب والاعتقال والسجن.. والموت.. تخشى حتى قول الكلمة!.

كانت خديجة تجيب، وذاكرتي تستعرض هذه الحقائق: إن من يضطهد جماهيره.. لا يمكن أن يدافع عن حرية وكرامة الآخرين. ما يدور في ذهن خديجة، هو الخوف من المستقبل ومن سيحكمها، تخاف حتى من الكلام.. كي لا تعاقب عليه مستقبلاً.

ميرفت عبد شبقية

طفلة عمرها ثماني سنوات.

إبنة عامل حدادة، من عائلة مكونة من الأب والأم وسبع أبناء (ستة بنات.. وولد واحد) وتسكن في مخيم برج البراجنة.

ذهبت إلى مركز "اللاهوت" الطب-ي، كنت قد حددت من سأقابل من الجرحى، من بينهم كانت ميرفت. سألت عنها، علمت أنها للتو عادت من غرفة "الغيار"عل الجروح، ساقها اليمنى مبتورة من فوق الركبة، براءة الأطفال في عينيها. طفلة حرمتها القذائف الصهيونية من ساقها. سألت ميرفت أكثر من مرة، كررت أسئلتي، لكنها لم تجب، كان لا بد من الاستعانة بوالدها الذي يجلس حزيناً بالقرب من سرير ابنته.

يروي الأب: كان هناك إعلان لوقف إطلاق النار ابتداءً من التاسعة مساءً، كان القصف خفيفاً قبل هذا الوقت، لكنه اشتد فجأة وبصورة عشوائية تساقطت القذائف على المنطقة.

كان أطفالي نياماً في المدرسة الوطنية في شارع "بعجور" (برج البراجنة). كنت أتحدث مع زوجتي، نتحاور، نفكّر في كيفية نقل الأطفال إلى مكان آخر أكثر أمناً. ما كدت أدخل الغرفة، حيث ينامون حتى انفجرت قذيفة في نفس الطابق، تطايرت الشظايا إليهم، ما أقساها من لحظة، هرعت إليهم، تمنيت لو استطعت أن أغطيهم جميعاً بجسدي.

أسرعت إلى حمل ميرفت، زوجتي كانت تصرخ، هي الأخرى حملت ياسرة (الابنة الصغرى)، احتضنتها، كانت تقبلها وتصرخ، أما من بقي من الأولاد، فكانوا يستطيعون المشي. ظلام الليل ودخان القذائف واللهفة منعت الأب من الانتباه لإصابة ابنته، لعلها غريزة الأبوة التي ترفض تصديق فكرة أن يصاب الإبن.

يحتضن الأب ابنته ميرفت يلتصق بها، لكنها تزداد صراخاً، وهنا ينتبه إلى إصابتها، جزع كثيراً للمنظر، ميرفت أصبحت بدون ساق تقريباً، ساقها اليمنى مدلاة! ما يربطها بالفخذ كان فقط الجلد الواصل بينهما من تحت الركبة.

دماء كثيرة تن-زف من ميرفت، غطّت ملابس الأب، حتى أن من رآه كان يعتقد أنه نفسه الجريح. انتقل الجميع إلى الممرّ، كان لا بد من نقل "ياسرة" التي كانت هي الأخرى مصابة إلى المستشفى.

يزداد التصاق ميرفت بوالدها، ينقلها وهو يركض تحت القصف كالمجنون، إلى مستشفى حيفا القريب من المدرسة.

من شدة القصف كان الأطباء والممرضون والجرحى، ومدنيون آخرون من المناطق المجاورة يختبؤون في ملجأ المستشفى، وهنا بالصدفة يجد الوالد شقيقه أنور ويكلفه بالذهاب إلى البيت لإحضار ياسرة.

يذهب الأخ بسرعة فائقة، يأتي حاملاً الطفلة "وفاء"، التي كانت مصابة أيضا في ساقيها ورأسها، يأتي أحد الجيران وهو يحمل بين ذراعيه "ياسرة" الطفلة الصغرى المصابة في ساعدها الأيمن. يجنّ جنون الأب، يصرخ، يستغيث، ويغيب عن الوعي. تجرى الإسعافات الأولية لبناته الأخريات، ويصحو. كانت الساعة تقترب من منتصف الليل، حالة ميرفت كانت خطيرة، والأجهزة في مستشفى حيفا لا تفي بالغرض، يقررّ الأطباء نقلها إلى مركز.. "اللاهوت".

في صبيحة اليوم التالي، يذهب الأب للاطمئنان على ابنته ميرفت، يستمع إلى تقرير الأطباء، الذين أوصوا ببتر ساقها اليمنى.

رفض الأب، أراد احتفاظ ابنته بساقها، ولكن لا أمل. تتم عملية بتر ساق ميرفت رغماً عنه، ويبدأ في التعايش مع الواقع المؤلم.

سألت ميرفت: من الذي تسبب في بتر ساقك؟.

تجيب: إسرائيل.

- من أي بلد أنت؟.

- من "عمقة" قضاء عكا.

- هل تستطيعين الذهاب إلى هناك؟.

- كلا.

- لماذا؟.

- إسرائيل تحتلّ قريتي.

ميلاد علي فروخ

العمر عشر سنوات.

في مركز "اللاهوت" بحثتُ عن الطفل ميلاد، كان طبيبه قد أكد لي أهمية رؤيته والاستماع إليه.

سألت عنه، أجابتني الممرضة: إنه في غرفة العمليات. غبتُ ساعتين، ومن ثم عدت إليه مرة أخرى، اقتربت من سريره، وجدته شبه صاح من أثر البنج، بعد أن أجريت له عملية "تنظيف" لجرحه. سمعت صوته، كان يهلوس ويقول.. "فدائي"... "ماما".. وكلمات أخرى غير مفهومة. آثرت الابتعاد. عدت إليه في اليوم التالي، وكان قد صحا قائماً.

من الوهلة الأولى رأيت ميلاد "الطفل"... ميلاد "الشيخ" ميلاد "الاسم" و.. ميلاد "الولادة من جديد".. كان نائماً على سريره الأبيض.. ملاك على شكل طفل. ساقه اليمنى مغطّاة بالجبس من أسفل الركبة حتى أصابع القدم.

يسكن منطقة المعمورة في الضاحية الجنوبية من بيروت مع أمه وأبيه وإخوته الثمانية. والده يمتلك محلا للعصير في منطقة الرّوشة.

عندما ابتدأ حصار بيروت، كانت العائلة تسكن في بيتها. وعن قصة إصابته.. يتحدث ميلاد.. ويقول: "ظهر أحد الأيام ذهبت وأخي الأصغر "أيمن" وابن الجيران "قيصر" نفتّش عن بطاريات للمصباح اليدوي. كان الواحد منا يمشي بعيداً عن الآخر مسافة عشرة أمتار، أيمن في الوسط، أنا على يمينه وقيصر على يساره. اقتربنا من صيدلية "المعمورة"، فجأة.. انفجرت قذيفة قربنا.. انتبهتُ إلى أخي.. رأيته ملقى في الشارع، أنا نفسي وقعتُ على الأرض، دماء كثيرة كانت تن‌زف من رأسي ومن ساقي اليمنى. حاولتُ الاطمئنان على أيمن، شعرتُ بصعوبة في الحركة.. ولكنني زحفت باتجاهه... ووجدته.. ميتاً".

وهنا، سألتُ ميلادا: "وكيف عرفت أن أيمن كان ميتاً؟".

فأجاب: "عرفت ذلك لأنه توقف عن التنفس!!". ويضيف: "كانت أمعاء أيمن

خارج بطنه، وحروق كبيرة في وجهه. كان الدم ينـزف غزيراً من جسده. انتبهت إلى قيصر.. فإذا هو الآخر ممددٌ على الأرض. في هذه الأثناء يأتي أبـي الذي كان يملأ جالونات الماء من حنفية بالقرب من منـزلنا.. كان خائفاً كثيراً علينا". يستطرد قائلاً:

"بعد أن رآنا أبـي، توجّه نحو أخي أيمن، ثم جاء جارنا "محمد صالح" وقد كان يلاعبني وأيمن على الدوام ويُحضر لنا ألعاباً جميلة، في آخر مرّة رأيناه فيها أعطانا حبات من الكرز الأحمر، حملني محمد صالح بين يديه، أبـي أخذ أيمن، وأحد الناس حمل قيصرا، خلال ذلك رأيتهم يرشّون الماء على وجه أمي التي أغمي عليها، حملوها هي الأخرى. نقلونا في سيارة جارنا، قادها بسرعة فائقة. عندما أغلق باب السيارة كاد يغلقها على ساقي المصابة.

أجلسوني على المقعد الأمامي بالقرب من السائق ووضعوا أخي أيمن على حضني. أبـي جلس في المقعد الخلفي وكذلك أمي، وقيصر واثنان من الجيران.

ولشدة سرعة السيارة فقد كادت تصطدم بسيارة أخرى مسرعة، لكنّ الله لطف.. ولم يحصل شيء، في الطريق، يقول ميلاد، "كنت لا أحس بشيء، ساقي مدلاة على الكرسي، ما أسمعه فقط كان صوت القذائف، أيمن على حضني، يداي لا تستطيعان الحركة.. تمنيت فقط لو استطعت أن أحضن أيمن.. أخي وصديقي."

هنا عندما قال ميلاد هذه الجملة، اضطربت كثيراً. لقد أثّرت كلمات الطفل بـي، أصابت مشاعري وأعماقي، بكيتُ بصمت. انقطاع التيار الكهربائي فجأة، انقذني، مسحت دموعي في الظلام. وما هي إلا دقائق حتى يعود النور، كنت قد استطعت السيطرة على نفسي ومشاعري.

وأعود إلى سماع ميلاد الذي يتابع روايته: "نُقلنا إلى مستشفى عكا.. وبدأ الأطباء بمعالجة ساقي، ما هي إلا لحظة حتى جاء والدي وطلب منهم أن يسعفوا أيمن، لأن حالته أكثر خطورة!!

لم يصدّق أبـي أن أيمن قد مات، كان يعتقد أن باستطاعة الأطباء إنقاذه. أحدهم يقول له الحقيقة ويجهش في البكاء.

في نفس الليلة نُقلت إلى مستشفى غزة، لكن هذه المرة لم يُحضروا معي لا أيمن ولا قيصر. شعرتُ بوحشة، افتقدهما.. أنا مشتاق لهما.. ثم نقلوني إلى هنا".

خلال حديثنا، يأتي الأب لزيارة ابنه، كان يحمل كيسين بداخلهما أشياء كثيرة. قبَّل ابنه، حيّاني، تحدثنا طويلاً. أضاف حادثة واحدة إلى ما كان ميلاد قد قال: أنه عندما ذهب مع بعض الجيران لدفن جثة أيمن في مقبرة الشهداء.. كانت القذائف الصهيونية تتساقط على المقبرة، حتى أن الوالد فكر في ترك جثة ابنه بين القبور دون دفن. ولكن رغم القصف تمكّنوا بعد جهد مواراته التراب.

ُ إلى الأب.. وازددت ألماً.. سألته عن قيصر، ابن جارهم، يقول الأب:

"إنه بخير.. وهو في الطريق إلى الشفاء التام". في هذه اللحظة يسأل ميلاد والده:

"أبـي.. أين ذهب أيمن.. إلى الجنة؟؟".

يجيب الأب: "نعم.. إلى الجنة".

ترتاح عينا ميلاد لجواب أبيه.
يُشهرُ لعبته، مسدسه، ويقول:
"سأصبح مهندساً. ولكن سأقاتل.. سأضربهم بهذا المسدس، انتقاماً لأيمن".

حسن محمد أبو النجا

العمر 30 سنة.

من غزة، متزوج، له ثلاثة أطفال، يسكن في مخيم "الرشيدية". إلتحق بالثورة في غزة عام 1973 وكان يشارك بنشاطات فدائية، ولطالما عمل على توصيل الأسلحة إلى مجموعات الداخل. كان يوصل الأسلاك، يربطها بين الأعمدة على جانب-ي الشارع، كمصيدة للدوريات "الإسرائيلية". اعتُقل في غزة أربع مرات، قضى في السجن مدداً تتراوح بين الثلاثة والستة أشهر في كل مرة. عذّبته "الموساد" كثيراً، ما زال يعاني من آثار كسر أضلاع في الجهة اليسرى من صدره. بعد أن اعتقلوه آخر مرة، طردوه إلى لبنان عام 1977، كان لا يزال عازباً.

من البداية التحق بكتيبة الشهيد "أبو يوسف النجار" في الرشيدية. اشتغل حسن مصوراً وأنشأ في الكتيبة قسماً خاصاً للتصوير، دعاه إلى ذلك تصميمه على تسجيل همجية الإسرائيليين وقصفهم المتكرر لمناطق الجنوب. يطوّر حسن أجهزة التصوير في الكتيبة، وتقديراً لنشاطه في هذا المجال تسلم كاميرا "فيديو" كهدية من الأخ القائد أبو عمار.

في النهار كان يمارس هوايته في التصوير، في الليل يعود إلى موقعه في الكتيبة، حيث يعمل على جهاز لاسلكي. في الفترة التي قضاها في الجنوب، تمكّن حسن من تصوير وتسجيل ثلاثة أشرطة فيديو لمعارك دارت في الجنوب. خلال الحرب الأخيرة، استطاع تصوير معركة "تلة شرحبيل" بالقرب من صيدا.

بعد احتلال "الإسرائيليين" للمدينة، ينتقل حسن إلى بيروت، ويذهب مع المقاتلين المتّجهين إلى "خلدة" و"الدامور". لامه كثيرون على مخاطرته، لكنه يجد حياته من خلال الكاميرا. الساعة الرابعة من بعد ظهر أحد الأيام، الطائرات الصهيونية تقصف منطقة خلدة في خمس عشرة غارة متتالية، في الأثناء يتواجد حسن بالقرب من الطريق الرئيسي وهو يحمل كاميراه، ويصوّر.

صاروخ ينفجر بالقرب من سيارته الواقفة على الشارع العام ويدّمرها. قذيفة أخرى تنفجر بالقرب منه، يتصور حسن نفسه طائراً يحلق في الجو، من ثم يغمى عليه، يصحو بعد أربعة أيام في مستشفى "غزة" على الحقيقة. شظيّة سببت له الشلل، ما زالت مستقرة في عموده الفقري.

عندما قابلته في مركز "اللاهوت"، كان يبتسم ويتألم في نفس الوقت تثقله جراحه. أخبرني كيف استطاعت زوجته مؤخراً، العثور عليه، بعد أن أضناها البحث طيلة شهرين، ذهبت خلالهما إلى "برّادات الموتى" في المستشفيات، كانت تفتّش بين أجساد شهدائنا، وبين القتلى "الإسرائيليين" بين البيارات، وفي كل الأمكنة. عرفت المستشفى الذي يرقد فيه زوجها، عن طريق أحد الناس من مخيّم "البص"، كان قد رأى حسن في المستشفى بالصدفة وأبلغ عائلته.

زاهر الدين عمر حموي

العمر 22 سنة.

سوري الجنسية، من "عفرين" بالقرب من مدينة حلب، يشتغل مع والده الفلاح في الزراعة. إلتحق بالجيش السوري منذ سنتين من أجل تأدية خدمة العلم. منذ بداية عام 1982 وهو موجود في بيروت، مع قوات الردع العربية.

تبتدئ المعارك الأخيرة، وتُكلّف الكتيبة التي يعمل من ضمنها زاهر بالذهاب إلى "جزّين" للدفاع عنها. في الطريق إليها يظهر طيران العدو في الجو، يُقصف الشارع، ينتشر المقاتلون ويختبئون بين الشجر في البساتين القريبة. تُكلف مجموعة من أفراد الكتيبة بالذهاب في سيارة، لتمديد خط هاتفي مع أحد المواقع الرئيسية للقيادة. تأتي طائرتان "إسرائيليتان" وتقصفان السيارة، التي تشتعل على مرأى من زاهر، يستشهد اثنان ممن كانوا فيها حرقاً، ويصاب الثلاثة الباقون بإصابات وحروق بالغة غطّت معظم أجسادهم. يذهب الرفاق لإسعافهم، باستثناء زاهر الذي أصيب بذهول كبير. سيارة عسكرية لـ "فتح" كانت في المنطقة تنقل المصابين إلى المستشفى في "شتورا".

بعد هذه الحادثة التي رآها عن قرب، زاهر لم يستطع النوم أكثر من نصف ساعة، يرى خلالها الأشباح والأحلام المزعجة ومنظر رفاقه وهم يحترقون، زاهر لا يستطيع الأكل بعدها. الحرب عنده تجسّدت في منظر احتراق السيارة، التي أصبحت هاجسه الوحيد.

قطعت القوات الصهيونية خطوط إمدادات الكتيبة، التي بقي أفرادها منتشرون في البساتين المجاورة، تضطر إلى استعمال تموينها الاحتياطي.

راعي غنم كان يمر بالجوار يراه المقاتلون ويطلبون منه ماءً، يذهب لتعبئة جالون ويعود، قطرات الماء في تلك اللحظة بالنسبة إليهم، كانت أغلى من كل حبات الماس في العالم. وتبقى الكتيبة في الحصار لمدة ثلاثة أيام متتالية.

دبابات سورية قدمت في محاولة لفك الطوق "الإسرائيلي" عن الكتيبة، ولتعزيز مواقعها. يفرح المحاصرون.. ها هي النجدة تأتيهم، سيكون الفرج قريباً. كان زاهر يرى الدبابات وهي تزحف على الشارع بالعين المجرّدة. فجأة.. تأتي طائرة "إسرائيلية" (على ما يبدو أنها طائرة استطلاع). ربع ساعة تمضي، ومن ثم طائرات أخرى كثيرة تغير على الدبابات القادمة التي احترق معظمها، بضع منها استطاع دخول جزّين.

تساءل المحاصرون من أفراد الكتيبة: - أين طائراتنا؟؟ وأصيبوا جميعاً بخيبة أمل. وتبدأ معركة رهيبة بين الكتيبة المحاصرة، وبين القوات الصهيونية، التي كانت تتقدم بمساندة الطيران. ينسحب زاهر مع من بقي من أفراد الكتيبة عبر طريق فرعي، حيث كانت نقطة التجمع في "بحمدون"، وبعد استراحة قصيرة هناك يتجهون إلى بيروت.

في الطريق وعند مفرق خلدة عاود الطيران الصهيوني قصفه الوحشي لهم، وينتشر المقاتلون في المناطق القريبة. في الليل استطاعوا الوصول إلى منطقة

"اليونسكو" في بيروت، حيث انتشروا على شاطئ البحر.
كان زاهر يرى بأم عينيه البوارج الصهيونية، وهي تصب حممها على المدينة الآمنة، ويكلف مع مقاتلين آخرين بحماية موقع على مقربة من "السفارة الأمريكية" حيث يبقى لبضعة أيام، ومن ثم يذهب إلى موقع آخر بالقرب من المطار. وأثناء عودته من مهمة عسكرية، فجأة تنفجر السيارة التي كانت تقل زاهر ورفاقه، إثر مرورها على لغم أرضي كان مزروعاً في الشارع، تحترق السيارة ويصاب من فيها، ومن بينهم زاهر، الذي يفقد الوعي ويصحو في المستشفى. عندما رأيته كان شاحب الوجه، آثار حروق في عينيه ووجهه وفي أنحاء أخرى من جسده، ساقاه مبتورتان من فوق الركبة. رفيقه محمد الشهاب‌ـي الذي يرقد على السرير المجاور، هو الآخر مصاب في ساقه اليسرى. محمد وزاهر كانا معاً طيلة المعارك.
سألت زاهراً عن شعوره بعد الإصابة مباشرة؟
أجاب: كنت أبكي وأصيح من الآلام الكبيرة في عيني وساقي، مددت يداي، تحسست أجزاء جسمي، عندها عرفت أنني بلا ساقين. وينقل زاهر إلى مستشفى عكا، تُجرى له الإسعافات الأولية، ومن ثم يحوَّل إلى مركز "اللاهوت" حيث تمت إجراء عملية بتر لساقيه.
سألته: أين قدميك؟؟
أجاب: أكلها شارون!!
يا إنساننا العرب‌ـي، ما أعظمك، من أقسى لحظات ضعفك تخلق مواقف الكبرياء.

عيد عودة أبو صوصين

من بئر السبع.
مقاتل من جيش التحرير الفلسطيني - قوات عين جالوت. متزوج وله أربعة أطفال، ثلاثة أولاد وابنة واحدة. يسكنون في مصر بالقرب من مدينة القاهرة.
عائلته منتشرة في أقطار عربية وأجنبية كثيرة مثل أيةّ عائلة فلسطينية أخرى. أحد إخوانه يسكن في مخيم جرش في الأردن. والداه بقيا في مدينة رفح، المدينة التي هاجرت إليها العائلة عام 1948. ما زال يذكر يوم رحيله الأول.. من بئر السبع.. كان يومها صغير السن.
يذكر بفخر يوم التحاقه بجيش التحرير الفلسطيني في غزة في 30/12/1961. ذلك اليوم يعتبره مشهوداً في حياته، عندما وضع على رأسه الشعار الفلسطيني.
إقامة عيد في لبنان تمتد إلى سنتين. تنقَّل خلالها في مواقع كثيرة.
رأيته في مركز "اللاهوت". كفه اليمنى مربوطة. بترت كل أصابعها.
وعن قصة إصابته يقول عيد:
عند ابتداء المعارك، كُلفت مجموعتي باستلام أحد المواقع في منطقة "خلدة". كنا نعمل على راجمة صواريخ.
في إحدى المعارك ضربتهم راجمتنا بعنف. صواريخها كانت تزغرد. حاول

"الإسرائيليون" التقدّم، تمكنا من إيقافهم، فتراجعوا.
فجأة يأتي الطيران، يغير علينا، نترك الراجمة، ننتشر وننبطح أرضاً. صاروخ "إسرائيلي" يدمّر راجمتنا". ثم.. انفجرت قذيفة بالقرب منا. استشهد رفيقاي في السلاح، أحمد حسين وأحمد شحاته. شظيّة أصابت يدي التي نـزفت دماء كثيرة. كنت أتألم.. من الإصابة.. ومن استشهاد زميلاي. شعرت بوحشة غريبة وخفت كثيراً. مضت ساعتان على إصابتي، هدأ القصف نسبياً، جاء مقاتلون وحملوني في سيارتهم إلى مستشفى غزة. طوال الطريق كنت أسمع صوت القذائف تنفجر، تمنيت وقف إطلاق النار ساعتها، حتى لا أصاب مرة أخرى.
سألت عيداً: ما هي أمنيتك بعد الخروج من المستشفى؟
أجابني: أن تتحرر فلسطين، وأن استقر في بلدي "بئر السبع"، لقد مللت الرحيل.

حمدية عبد الرزاق

العمر 41 سنة.
مصرية الجنسية، تشتغل عاملة تنظيفات في الهلال الأحمر الفلسطيني، ثلاث سنوات مضت على خدمتها، تنقّلت خلالها بين مستشفيات كثيرة، رام الله، حيفا وغيرهما في مدينة بيروت.
حمدية مريضة بالسكري. بعد الاجتياح الصهيوني للبنان ارتفعت نسبة السكر في دمها وأصيبت بنوبة إغماء، نُقلت على أثرها إلى المستشفى.
تقول حمدية ببساطة عربية ريفية أصيلة: "لو لم تُوقّع معاهدة "كامب ديفيد" مع "إسرائيل" لما وصلنا إلى هذه الحالة، ولما تُمّ اجتياح لبنان"، وتستطرد قائلة: "لمال العربـي هو الآخر أحد الأسباب، فقد أعمى الأبصار، جعل الحكومات لا ترى معاناة أطفالنا في الملاجئ، لذلك لم يهبّوا لمساعدتنا"".
كلمات بسيطة قالتها حمدية، لكنها معبرة كثيراً. أتساءل في ذهني، أليس من المفروض أن تكون الثروات في عالمنا العربـي، مصدر رخاء للجماهير العربية؟ هذا هو الشيء الطبيعي،. واسأل حمدية: أمتزوجة أنت؟
وتجيب: "عملي هو الزوج والأب والابن والحياة، مضت سنوات ثلاث، احتككت خلالها بمئات من المرضى والجرحى، أجد لذّة كبيرة في خدمتهم، تعوّضني عن كل شيء، أعشقُ عملي عندما أقدّمُ مساعدة لمريض، أشعر بسعادة كبيرة لا يضاهيها شيء".

وداد علي الحاج

العمر 20 سنة.
فلسطينية من قرية (فاره - الجليل) تسكن في مخيم الرشيدية (جنوب لبنان).

أثناء الاجتياح الصهيوني للجنوب عام 78، دمّرت القوات "الإسرائيلية" الغازية من-زلهم الذي سكنته عائلة مكونة من الأب والأم وثماني صبيان، وسبع بنات.

العم ينقل العائلة إلى مخيم "برج البراجنة" بالقرب من بيروت، ويُسكنها بيتاً تمكّن من تدبيره، بعد عناء طويل. تبتدئ المعارك الأخيرة، كانت الطائرات "الإسرائيلية" تحرثُ المخيمات قصفاً، قذائف مدافعهم وبوارجهم هي الأخرى تحصدُ بنايات المنطقة، وتدمّر معظمها.

اضطرّت بعض عوائل الحي على أثر ذلك أن تتخذ من "مدرسة عكا" القريبة، بيتاً لها، يجهّزُ الناس فيها أكلهم، وينامون أكداساً بشرية في غرف الدراسة.

في مركز "اللاهوت" اقتربتُ من وداد، الصبية ابنة العشرين، الحلوة الوجه، الدائمة الابتسامة. ردّت تحيتي وكأنها تعرفني منذ زمن طويل، ارتحتُ بدوري لرؤيتها. سألتها عن قصة أصابتها، روت لي:

"أُصبتُ مرتين. في المرة الأولى أصيبت ساقي اليسرى عندما اخترقت إحدى القذائف جدار بيتنا في المخيم، كانت إصابتي يومها طفيفة. ذهبتُ إلى مستشفى عكا، أُجريت لي الإسعافات اللازمة، وعدت إلى المدرسة، حيث اتخذنا منها بيتنا المؤقت.

في أحد الأيام التالية، كنّا قد انتهينا للتو من الغداء، عاود الطيران غاراته على السكان الآمنين، وضرب مدرسة عكا، أصبتُ مرّة أخرى بجراح بالغة في نفس الساق، ويصاب كذلك أخي وأختي بحروق شديدة. ن-زفت دماء كثيرة من ساقي، أختي وأخي كانا يصرخان، سمعتهما وفقدتُ الوعي، عندما صحوت وجدت نفسي في مستشفى حيفا".

استمعتُ إلى قصة وداد بانفعال بالغ، تأثّرت لها، تصوّرتها عروساً في ثوب أبيض، تُزّف إلى عريسها، والناس، كل الناس من حولها.

سألتها: هل أنت مخطوبة؟.

أجابت وقد احمرّت وجنتاها خجلاً: "لم أعثر بعد على ابن الحلال". لحظات خرجتُ فيها عن واقع الألم الذي تعيشه وداد، لكنّ ألم الواقع كان أقوى من كل خيالات الفرح، وتشدّني من جديد.

سألتها: وبماذا تفكرين الآن؟؟.

أجابت وداد: "بمصير ساقي، وهل سأستطيع المشي مثل باقي البنات؟؟".

تستطرد: "أريد أن أمشي سريعاً، فأنا أرعى أخوتي الصغار".

سليمان بلوط

رأيته في مركز اللاهوت، جالساً على سريره الأبيض، ساعده الأيمن مغطى بالجبس. أحسست من الوهلة الأولى بأنه مناضل قديم، عاش رحلة المآساة الفلسطينية منذ بداياتها الأولى، عيناه تختزنان ألماً دفيناً، ملامح وجهه توحي بأشياء كثيرة، تحمل فيها أصالة فلسطين وعمق الارتباط بأرضها، رأيته رجلاً في منتصف العمر، شيخاً في معاناته، صلباً في مواجهة الآلام.

سليمان بلوط.

العمر 37 سنة.
من مواليد "البصّة" قضاء عكا.
كان صغيراً عندما هاجر من القرية مع عائلته عام 1948، لكنه حمل في قلبه صلابة أسوار عكا في مواجهة الغزاة، وعطاء زيتون فلسطين، حمل معه الإصرار على العودة. يصل سليمان إلى "الرشيدية" في لبنان، حيث تسكن العائلة في أحد البيوت المتواضعة.
ظروف الحياة في الواقع الجديد كانت أكثر من صعبة، يحمل سليمان مرة أخرى أمتعته ويرحل مع والديه وأخته الصغيرة إلى مخيم "ضبية"، يتخذون من أحد "البركسات" (وهو من بقايا الجيش الفرنسي) مسكناً لهم.
في سنة 1958 نشبت الحرب الأهلية في لبنان. انضم بعدها سليمان إلى حركة القوميين العرب. التي ناضل من خلالها سنوات طويلة.
في عام 1976 حاصر الكتائبيون "ضبية" لمدة عشرة أيام متتالية عانت خلالها من القصف والقنص، من قلة الماء والغذاء والدواء. يدخل الكتائبيون "ضبية" ويكشفون حقدهم الأسود، لقد ذبحوا أهلها، اغتصبوا نساءها، كانوا يدفنون الناس أحياء، قطعوا ألسنة البعض وآذان الآخرين، وطردوا أهلها من منازلهم. استقرت العائلة مؤقتاً بضع سنوات في مخيم شاتيلا، انتقلت بعدها في عام 1981 إلى منطقة الصنائع حيث سكنت إحدى شقق الطابق الأول من بناية "عكر".
سليمان يذكر يوم زواجه بكل تفصيلاته، كان ذلك في عام 1963، خلال الرحلة الطويلة أنجب خمسة أبناء (ثلاث بنات وولدين) ربَّاهم، رعاهم وزرع في أعماقهم حب الأرض والوطن.
تبدأ المعارك الأخيرة ومن ثم حصار بيروت، الساعة الثانية بعد ظهر يوم الجمعة 6/8/82 سليمان يجلس على شرفة بيته، يشرب القهوة مع أصدقائه رمزي وأبو إدوارد. ظهرت الطائرات "الإسرائيلية" في الجو بالرغم من سريان وقف إطلاق النار. فجأة، يُسمع صوت انفجار صاروخ. يشعر سليمان أن شيئاً ما حمله وحطّ به في مكان آخر. جسر حديدي من سقف إحدى الغرف غطّاه، كان على مسافة "عشرين سنتمتراً" من جسده...
ثوان مرّت، يسمع صوت انفجار الصاروخ الثاني، مرّة أخرى ينتقل سليمان إلى مكان جديد وسط الردم، حجر كبير سقط على ساعده الأيمن.
يصيح ويصرخ طالباً النجدة، لكن لا أحد يأتي. دقائق مرّت أحسها سليمان دهراً، خاف، فكر في عائلته، وتساءل في ذاته هل سأعيش؟.
يستدلّ البعض على مكانه، يسحبونه من تحت الردم، وينقلونه إلى مستشفى الجامعة الأمريكية. يعتقد سليمان جازماً بأن جميع من في البناية ومن ضمنهم أفراد عائلته ماتوا، فهل تصدقه أحاسيسه؟.
في صبيحة اليوم التالي، ينقلون له الأخبار، قُصفت البناية بصواريخ حديثة جرَّيها "الإسرائيليون" في بناية "عكر"، حيث إن ثماني طوابق انهارت على بعضها البعض وأصبحت كومة من الردم، لا ترتفع عن الأرض أكثر من أربعة أمتار.
تستمر عمليات البحث بين الأنقاض عشرة أيام، وتكون الحقيقة الرهيبة

المؤلمة بالنسبة لسليمان:
استشهاد والدته وجدته وأبنائه الخمسة:
منى (العروس الحامل).
آمال.
كمال.
سليمز
ريما.
وزوجته وأصدقائه رمزي وأبو إدوارد وحوالي مئتين وخمسين آخرين، أربعة جرحى فقط نجوا... كان من بينهم سليمان.

يا هذا القدر ما أقساك، يا هذه الدنيا ما أظلمك، كان سليمان سعيداً بعائلته، وفجأة أصبح من دونها.

قال سليمان: "تمنّيت لو متّ معهم، ماذا بقي لي في الحياة من بعدهم؟".

عندما روى لي سليمان قصة استشهاد عائلته، بكى بصمت وأزاح وجهه عني فترة عشر دقائق، ثم استطرد قائلاً:

"تصوّر، استشهدت زوجتي، وهي تحتضن ابنتنا الصغيرة ريما، التي انشطرت إلى نصفين". عند هذه النقطة بالذات شعرتُ بالاختناق، فأعصاب‌ـي لم تعُد تحتمل المزيد من الاستماع. كابرتُ على نفسي، حاولتُ متابعة الحديث حديث، لم أستطيع، خرجت كلماتي متحشرجة، متقطّعة، حزينة، قرّرت الصمت. ودَّعتُ الرجل وخرجت. كان الوقت ليلاً، لأول مرة منذ بداية الحرب أشعر بحاجة ملحة إلى السير وحيداً في الظلمة، كي أدفن فيها بعض ما حملت من أحزان الرجل".

ملف الصور

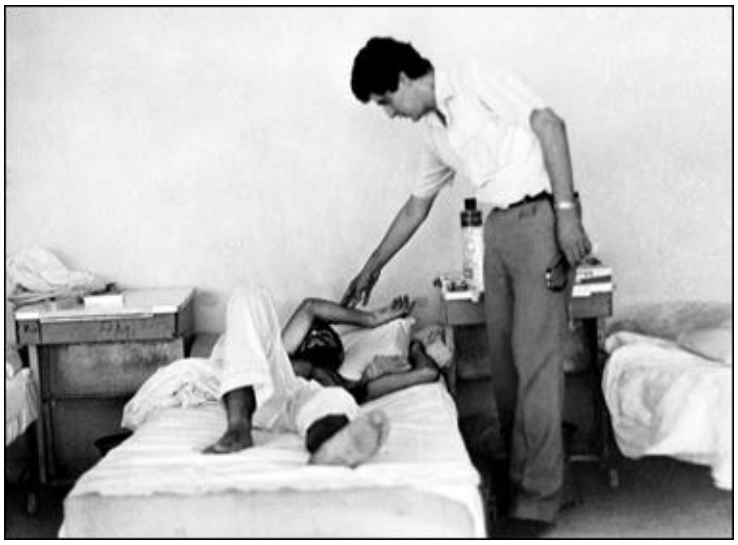

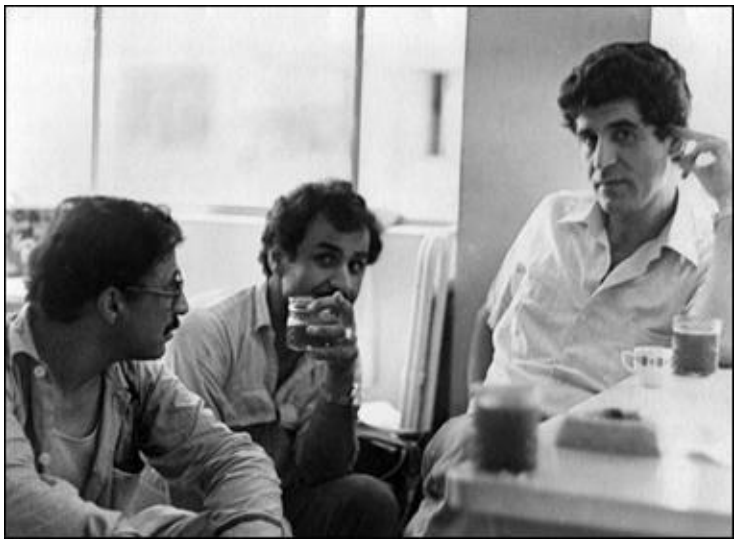

د. فايز رشيد
نبذة عن الحياة

- من مواليد مدينة قلقيلية عام 1950-فلسطين.
- أبعدته سلطات الاحتلال الصهيوني في عام 1970 إلى الأردن بعد اعتقال دام سنتين في السجون الإسرائيلية، اعتقل وهو في السنة الأخيرة في الدراسة الثانوية.
- حصل على بكالوريوس الطب من موسكو عام 1979، عمل طبيباً عاماً في مخيمات الأردن ولبنان، وعاش حصار بيروت عام 1980 وانتقل مع المقاتلين إلى سوريا.
- حصل على شهادتي الماجستير والدكتوراه في الطب من العاصمة البيلورسية مينسك عام 1990في تخصص العلاج الفيزيائي والوخز بالإبر الصينية، ويمارس عمله كاختصاصي في هذا المجال، وهو عضو في نقابة الأطباء الأردنية.
- بعد التغييرات الديموقراطية في الأردن حضر وزوجته المناضلة ليلى خالد وأبناهما إلى الأردن، وافتتح مركزاً للعلاج الطبيعي والإبر الصينية، ما يزال يعمل فيه منذ عام 1992 وحتى اللحظة.
- كاتب وباحث في الشؤون الاستراتيجية وهو من الخبراء في الصراع الفلسطيني العرب-ي - الصهيوني.
- كاتب سياسي، باحث، وكاتب قصة قصيرة، وروائي، وله العديد من الأبحاث والمقالات المنشورة في عدة مجلات وصحف عربية مختلفة، وما زال يمارس الكتابة في العديد من الصحف العربية.
- عضو الاتحاد العام للكتّاب والصحفيين الفلسطينيين.
- عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب.

من مؤلفاته:

- الجراح تشهد، مذكرات طبيب في زمن الحصار - الطبعة الأولى، 1983.
- تزوير التاريخ، في الرد على كتاب نتنياهو: مكان تحت الشمس - 1997.
- خمسون عاماً على النكبة - 1999.
- وداعاً أيها الليلك - مجموعة قصصية - 2003.
- ثقافة المقاومة - 2004.
- زيف ديموقراطية إسرائيل - 2004.
- في الطريق إلى الوطن - (شذرات من وقائع حياتية) - 2008.
- ستون عاماً على النكبة - 2009.
- قضايا حوارية، فلسطينية وعربية - فكر - 2010.

- وما زالت سعاد تنتظر - رواية - 2011.
- الرحلة البيلورسية في عهدين -رواية في أدب الرحلة - 2012.
- ذهبت مع الخريف - مجموعة قصصية - 2012.
- عائد إلى الحياة - رواية - 2014.

انتهى

---

[1] أنظر كتاب الخطر اليهودي، بروتوكولات حكماء صهيون، محمد خليفة التونسي، ص 116.
[2] نفس المصدر، ص 116.
[3] كتاب "الصهيونية والعنف"، حسين طنطاوي، ص 16.
[4] كتاب "الدولة اليهودية" ثيودور هرتزل، لندن، ريشاسبرا 1946.
[5] الصهيونية والعنف - حسين طنطاوي، ص 16.
[6] كتاب "الثورة - قصة الأرغون" مناحيم بيغن، نيويورك، هنري شومان، 1951.
[7] نفس المصدر.
[8] الصهيونية والعنف، المصدر السابق.
[9] جريمة إبادة الجنس، د. محمد سليم محمد غزوي، منشورات مكتبة التوفيق، عمان، ص 93-94.
[10] انظر اتفاقيات جنيف، القواعد الأساسية، العقوبات، اللجنة الدولية للصليب الأحمر، جنيف 1977.
[11] انظر البروتوكولان الإضافيان إلى اتفاقيات جنيف، اللجنة الدولية للصليب الأحمر 1978، جنيف.
[12] انظر اتفاقيات جنيف، القواعد الأساسية، الباب الثاني. اتفاقيات جنيف بشأن تحسين حال الجرحى من أفراد القوات المسلحة في الميدان، اللجنة الدولية للصليب الأحمر - جنيف 1977.

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

د. فايز رشيد

الجراح تشهد

مذكرات طبيب في زمن الحصار
(بيروت 1982)

تقديم:
د. جورج حبش